أزقة الذاكرة

ذكريات الفافيلا

كونسيساو إيفاريستو

مكتبة ٦١١

رواية

المركز الثقافي العربي

الكاتبة البرازيلية البطلة

من خادمة منزل إلى دكتورة جامعية كتبها مُقرَّرة

مكتبة | ٦١١

كونسيساو إيفاريستو

أزقّة الذاكرة

ذكريات الفافيلا

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠٢٠ ١٠ ١٩

الكتاب
أزقة الذاكرة: ذكريات الفافيلا
تأليف
كونسيساو إيفاريستو
ترجمة
سعيد بنعبد الواحد
الطبعة
الأولى، 2019
عدد الصفحات: 214
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-938-8
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212+ 522 305726
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
Conceição Evaristo
Becos da Memória
© Becos da Memória, 2017 - Conceição Evaristo

رسوم الغلاف والداخل:
© Lúcia Hiratsuka, éditions Anacaona, Paris

أزقة الذاكرة

ذكريات الفافيلا

كونسيساو إيفاريستو

مكتبة | ٦١١

رواية

ترجمها عن اللغة البرتغالية:

سعيد بنعبد الواحد

المركز الثقافي العربي

كونسيساو إيفاريستو[1]

بقلم: **كونسيساو إيفاريستو**

اسمي ماريا دا كونسيساو إيفاريستو دي بريتو، وأتحدّرُ من ولاية ميناس جيرايس جنوب شرق البرازيل. حسب شهادة ميلادي، فقد ولدتُ يوم 29 نوفمبر من سنة 1946. ربما تكون أمي، جوانا جوزيفينا إيفاريستو، هي من زوّدهم بهذه المعلومة، عندما صرّحَت بميلادي، وأظن أنها معلومة موثوقة. أمي تبلغ اليوم خمساً وثمانين سنة، ولم تكذب مرة في حياتها.

أما والدي فلا أعرف عنه الشيء الكثير. لكني أعرف أكثر عن ذلك الذي أعتبرُه والدي الحقيقي، أنيبال فيتورينو، وكان يشتغل بنّاء. عندما حلَّ أنيبال، زوجُ أمي، في حياتنا، كانت أمي تربّي لوحدها أربع

(1) هذا النصّ، الذي نقدمه في ترجمة بتصرّف، عبارة عن كلمة مطوّلة ألقتها الكاتبة خلال ندوة نُظّمت بجامعة ميناس جيرايس في مدينة بيلو هوريزونتي، في شهر مايو من سنة 2009. -المترجم-

بنات. بعد بناتها الأربع، رُزقت أمي بخمسة أولاد، إخواني، أبناء زوج أمي.

خفّف حضورُ زوج الأم نوعاً ما من غياب الأب. لكن والدتَيّ معاً هما من ساهمتا فعلاً في ملء فراغ الأب. في سنّ السابعة، ذهبتُ عند الأخت الكبرى لأمي، خالتي ماريا فيلومينا دا سيلفا، المتزوّجة من أنتونيو جواو دا سيلفا، العم توتو، الذي ترمّل مرتين. لم يرزقا بأبناء. ذهبتُ لأعيش معهما حتى أخفِّف عن أمي عبء إعالة طفل آخر. كانوا أقلّ فقراً منا. كان العم توتو بنّاء والخالة ليا تشتغل غسّالة، مثل أمي. منحتني ظروف الحياة الأفضل التي كنتُ أتمتع بها عندهم فرصة متابعة دراستي. أما أخواتي فقد واجهن كثيراً من الصعاب والعراقيل.

أمٌّ غسّالة، وخالةٌ غسّالة... امرأتان تتمتعان بفعالية مضاعفة للقيام بكل مهام البيت من طبخ، وترتيب، وكيّ ملابس، وتربية أبناء... منذ نعومة أظافري، تعلّمتُ كيف أعتني بأجساد الآخرين.

في سنّ الثامنة حصلتُ على أول عمل في البيوت، وهو الأول ضمن سلسلة طويلة. كنتُ أعمل عند مُشغّلاتي. أرافق إخواني وأخواتي والأطفال إلى المدرسة. كنتُ أساعد كل هؤلاء الصغار على إنجاز واجباتهم المدرسية، وأكسب بالمناسبة بعض النقود. كنتُ أقدّم يدَ المساعدة إلى أمي وإلى خالتي. أبحث عن الملابس المتّسخة، أغسل كل شيء، وأعيد الجَفنات إلى بيت المُشغّلات. بل إنني قمتُ

بمهام ترتيب البيوت عند بعض المعلمين مقابل دروس خصوصية، مقابل عنايتهم بي في المدرسة وخصوصاً مقابل بعض الكُتب المدرسية لي ولإخواني وأخواتي.

كما أننا جرّبنا كيف نربح بعض المال بجمع ما يرميه الأغنياء في القمامة. وعندما نشرت ماريا كارولينا يومياتها تحت عنوان **اليأس** سنة 1960، وخلّفَ ذلك ردّ فعل قوي لدى قرّاء الطبقات المحظوظة في البرازيل، تماهينا نحنُ فوراً مع الكاتبة. فكما جرّبَت ذلك ماريا كارولينا في شوارع ساو باولو، كنا نحن أيضاً في شوارع بيلو هوريزونتي نعرف رائحة ومذاق القمامة، وندرك كذلك متعة الظفر ببقايا الأغنياء التي كنا نفتش عنها. كنا نفتقر لأبسط شروط الحياة اليومية، فكان ما يفيض عن حاجيات البعض -الذي يكسبونه دائماً على حساب بؤس الآخرين- ينتهي بين أيدينا بكل تواضع.

في أُسرتنا، كنا نتابع دراستنا في المدرسة العمومية. وفي محيط مدرسي يتميّز بممارسات بيداغوجية تطبعها تارة الجودة، وتارة الرداءة، اكتشفتُ بقوة ظرفنا الاجتماعي بوصفنا سوداً وفقراء.

في المدرسة الابتدائية، تعرّضتُ جسدياً للتمييز العنصري في التعليم. كانت بناية المدرسة تتكوّن من طابقَين. في الطابق العلوي، أقسام المتفوقين من التلاميذ، أولئك الذين يتلقّون الميداليات، لا يكرّرون، يرقصون في الحفلات، ويضعون التاج على رأس العذراء أثناء الحفلات. قضيتُ كل فترة سنوات المرحلة الابتدائية وأنا أمنّي

النفس بأن أكون يوماً ما تلميذة من تلاميذ قاعات الدرس في الطابق العلوي. لكن أخواتي، وإخواني، وكل التلاميذ الفقراء، وأنا أيضاً، كنا دائماً محبوسين في الطابق السفلي. لكن، ذات يوم، وبشكلٍ مفاجئ ومفرح، تمَّ قبولي في الصف الرابع مع تلاميذ الطابق العلوي. وهو ما لم يُرضِ بعض المعلمين. فقد كنتُ مزعجة، أنا التي كنتُ أصرُّ على طرح الأسئلة، والمشاركة في الكورال، والمسابقات، وتمارين الكتابة دون أن أتلقّى دعوة من أحد. لكني، أيضاً، اكتسبتُ تعاطف العديد من المُدرّسين.

عند نهاية المرحلة الابتدائية، سنة 1958، تلقّيتُ أول جائزة أدبية في حياتي حين فزتُ بمسابقة في كتابة الإنشاء في موضوع: «لماذا أشعرُ بالفخر بأنني برازيلي». حصل إجماعٌ حول جودة الكتابة؛ لكن كان هناك اختلاف بخصوص منح الجائزة. لم أكن تلميذة مثالية. ما يُنتظر من طفلة سوداء وفقيرة، ومن أسرتها أيضاً، أن تكون سلبية ومُطاوِعة. بيد أن الأمر لم يكن كذلك، لأن أفراد أسرتي كانوا يملكون وعياً، ولو أنه غير واضح المعالم، حول وضعهم كسودٍ، وفقراء، وسكّان فافيلا.

بعد المرحلة الابتدائية، ولجتُ الإعدادية، لكن دراستي عرفت الكثير من الانقطاعات المتكرّرة. وانطلاقاً من سنّ السابعة عشرة، بدأت أشارك بقوة في النقاش الدائر حول الواقع الاجتماعي في البرازيل.

أنهيتُ دراستي بكلية المعلّمين في ولاية ميناس جيرايس سنة 1971. كانت فترة عصيبة بالنسبة إلى أسرتي وإلى العديد من الأُسر الأخرى التي تضرّرت كثيراً من خطة «إزالة الفافيلات» من المدينة. كانوا يرسلوننا لنعيش بعيداً في هوامش المدينة. وبعد إبعادنا عن مركز مدينة بيلو هوريزونتي لم نكن نربح أي شيء، عدا مزيد من الفقر.

سنة 1973، نجحتُ في مباراة المعلمات في ولاية ريو دي جانيرو. بعد أن أصبحت إجازة تعليم في جيبي، وأمام استحالة ممارسة التدريس في بيلو هوريزونتي، أخذتُ حقيبتي الصغيرة وذهبتُ إلى ريو دي جانيرو.

أودُّ أن أقول إن علاقتي بالأدب بدأت في مطابخ الأغنياء. كانت أمي، وخالاتي وبنات خالاتي يشتغلن عند كُتّاب كبار من ولاية ميناس جيرايس أو لدى عائلاتهم. ممّا يعني أن قدرَ الأدب كان يُلاحقني...

لم أولد محاطة بالكُتب. كان بيتُنا يفتقر للأمور المادية لكنه كان مسكوناً بالكلمات. كانت أمي وخالتي حكواتيتين من الطراز الأول، وكان خالي حكواتياً كبيراً، كما أن جيراننا وأصدقاءنا كانوا يحكون ويردّدون الحكايات. ورغم أن محيطي القريب كان شبه أُميّ، فإنه كان مفتوناً بغواية القراءة والكتابة.

عند سنّ الحادية عشرة، تلقّيتُ هدية رائعة: مكتبة كاملة هي المكتبة العمومية. كانت إحدى خالاتي قد أصبحت خادمة تشتغل في

هذا البيت-الكنز، مكان الحرية. أصبحَت المكتبة بيتي الخاص، مكان أبحث فيه عن أجوبة لكلِّ تساؤلاتي...

مدفوعةً بأمل عنيد ومعرفة مبكِّرة، كانت الفتاة الصغيرة التي كنتُها تُدرك أن الحياة لا يمكن حصرها في ما تمنحنا من أشياء قليلة. فإن كانت طفولتي فقيرة، فقيرة جداً، وتؤلمني، لا يمكنني، مع ذلك، أن أنسى كلَّ تلك أشكال الفرح التي لا توصف. أزهار اللؤلؤ، والدهلية، وكل الأزهار الصغيرة في حديقتنا. الفواكه التي كنا نقطفها مباشرة من الأشجار كي نُلهي الجوع. دمى التبن أو الساحرات المصنوعة من الثوب التي تخرج من أيدينا وهي تحمل اسماً وحكاية. السماء، والسحب، والنجوم، علامات اللانهاية التي علّمتنا أمي وخالتي كيف ننظر إليها ونشعر بها.

من هذا الاهتمام بالحياة الذي علّمنَهُ إيانا بقيت لي عادةُ البحث عن الروح، والغوص في حميمية الأشياء. وتعلمتُ كيف أجمع البقايا، والقطع المتناثرة، والآثار، لأنني أظن أن الكتابة -على الأقل بالنسبة إليّ- هي الرغبة التي تطمح إلى تدوين ما نعيشه، والاحتفاظ بالعابر إلى الأبد.

وبما أن الذاكرة تعدُّ من ضحايا النسيان بدورها، فإنني أبتكرُ. وأبدعُ. وفي هذا التشابك، أتخيّلُ، وأخلقُ شخصياتي. لقد ابتكرتُ بونسيا فيسينسيو وزَجَجت بها في متاهات ذاكرتي. استعملتُ صورة سوداء عجوز، ريتا، التي التقيتُها ذات يوم. فهل من هنا جاءت

شخصياتُ رواياتي، مثل آنا ودافينغا؟ من يدري أن دافينغا ليس هو ابن عم أليريو الأسود؟

بما أنني أستحضر أزقّة الذاكرة هذه... فقد عدتُ هذا الصباح إلى الزقاق الذي ترعرعت فيه، زقاق ألبيتا، الذي لم يعد يشبه في شيء زقاق الماضي. لم أتعرّف فيه غير التراب. نعم، التراب، والغبار، وتلك الأَكَمَة التي كان يقام فوقها سوق «كروزيرو»، في مؤخّرة الزقاق.

ثم هناك، بعيداً، ينتصب تمثال يصوّر رجُلَين بأذرع مفتوحة، مُعَلّقَين، في حركة واسعة، وكأنهما يتقدمان إلى الأمام. هذا النحت الذي لم يوضع تخليداً لذكرى الأجداد ولا احتفاء بسكان الحي الأوائل، يُسمّى «تفاؤل». لستُ أدري لماذا فكرتُ في كل أمواتنا، في كل من سكنوا هذا المكان. ثم شكرتُ الحياة على كل ما أعيشه الآن. لم يكن ذلك التمثال يعجبني، بيد أنه كان يشحذ فضولي. لأي سبب نصبوه في هذا المكان؟ ولماذ هذا الاسم، «تفاؤل»؟ ثم خطرت على بالي أسماء أخرى، وكان واحد منها يعود بإلحاح: مقاومة، مقاومة، مقاومة...

أكتبُ. أقدّمُ شهادة. شهادة تمتزج فيها الصور، و«أنا» الآن يتجاذب مع «أنا» الطفلة الصغيرة التي كنتُها في أزقّة بيلو هوريزونتي. وبما أن الكتابة والحياة تختلطان وتتداخلان، فإنني ما زلتُ أمارس «الكتابة-الحياة» (Escrevivência).

كانت الجدة ريتا

تنام منكمشة معها. كانت الجدة ريتا طيّبة تحبُ الجميع، تحبنا نحن وتحب الأخرى.

ربما لا يمكن للأخرى أن تعوّل سوى على حبّ الجدة ريتا، لأنها لا يمكن أن تنال من جهتنا سوى الخوف والاشمئزاز. أذكرُ أنها كانت تعيش بين الظهور والاختفاء وراء البوابة. بوابة خشبية كبيرة وعتيقة، بين كوخ وآخر، انفصلت بعض ألواحها، وتنفتح على زقاق مظلم. كان جواً دائم الظلمة، حتى في أكثر الأيام جلاءً ونوراً.

بالنسبة إليّ، وبالنسبة إلى العديد منا، أطفالاً وكباراً، كانت الأخرى لغزاً، إلّا بالنسبة إلى الجدة ريتا، التي تعرف عنها كل شيء. كانت الجدة ريتا تنام منكمشة معها.

لم أتمكّن قط من رؤية وجهها بكامله. أحياناً، كنتُ أتكهّن نصف وجهها. أظلُّ أرقبها، حين أضع السطل في طابور الماء أو أدخل فيها الأنبوب ثم أظل هادئة، كأن شيئاً لم يقع. كانت تظهر لتنظر إلى العالم، ترى الناس وتسمع الأصوات. أما أنا، فكنتُ أفتح عينَيّ، وأتطلع إلى أعلى (بعينَيّ فقط).

لم أفلح في معرفة سبب حاجتها إلى رؤية العالم، هناك من حولها. كان كل شيء قبيحاً من حولنا. عوالم عظيمة!... دكان يبيع الخبز، والتبغ، وماء الحياة، وقطع السكر. كان الدكان في ملك ابن

الأخرى. لا أحد يرغب في شراء أي شيء من الدكان، والرواج نادر. كان يبيع أيضاً الصابون، وماء التطهير، والصباغة. وعدا ماء الحياة، كانت هذه هي الموادّ الأكثر مبيعاً.

أمام البيت الذي كانت تسكنه رفقة الجدة ريتا، كانت هناك نافورة ماء عمومية. إنها «النافورة العليا»، لأنه في الطرف الآخر من الفافيلا كانت توجد «النافورة السفلى». وكانت هناك أيضاً «النافورة الكبرى» ونافورات أخرى في نقط مختلفة. كانت «النافورة العليا» أحسن بالمقارنة مع «النافورة السفلى». تضخّ ماء أكثر ويمكننا أن نغسل الملابس طوال اليوم، وكل شيء يتمُّ بسرعة.

عندما أرغب في اللعب، كنتُ أفضّل «النافورة السفلى». كانت أقرب إلى بيتنا. هناك دائماً أصدقائي من الأطفال، شيء من التوت نلتقطه، وحانةُ سيما، حيث كنتُ دائماً أظفر بما بقي من قطع الحلوى. عندما تنتابني الرغبة في المعاناة، وكشف الألغاز، أتوجّه إلى «النافورة العليا».

النافورة، الماء، الغسّالات، الأكواخ من القصدير والورق والخشب، والأزبال. ملابس السيدات المنشورة تحت أشعة الشمس. أسمالُنا المغسولة بما فضل من الصابون. كنتُ أشمئزّ من غسل دم الآخرين. بل لم أكن أعرف إن كان ذلك هو الدم. لطالما ظننتُ أن السيدات، والنساء الثريات يتبولن الدم من حين إلى آخر.

في تلك الفترة، فترة طفولتي، كان فضولي يحترق أمام كل شيء. الفضول لرؤية جسد الأخرى بالكامل، وفحصها بعينَيّ، لكنها تفطن للأمر فتهرب. فهل أفلحت يوماً ما في رؤية العالم المحيط

بها، وهي مختبئة وراء البوابة؟ ربما. ذات سبت أو أحد عندما تخلو النافورة من الغسّالات.

اليوم، صارت ذكرى ذلك العالم تملأ عينَيّ دموعاً. كم كنا فقراء! بؤساء، ربما! كم كانت الحياة تمضي بسيطة وكيف كان كل شيء معقّداً!

كانت هناك الوجوه الحلوة الغامضة. وكان هناك حبّ الجدة ريتا، ذلك الحب العذب. يوم علمتُ، وأنا كبيرة، بعد وقت طويل، أن الجدة ريتا كانت تنام منكمشة معها، عاودتني تلك الرغبة المؤلمة في الكتابة.

إنني أكتبُ احتفاءً بالجدة ريتا بعد وفاتها. الجدة ريتا التي كانت تنام منكمشة معها، مع تلك الأخرى التي لم أتمكن قط من رؤيتها بالكامل. أكتبُ احتفاء بالسكارى، والمومسات، والسوقيين، والأطفال المشرّدين الذين يسكنون أزقة ذاكرتي. إنه احتفاء متأخّر بالغسّالات اللواتي ينهضن باكراً وينشرن الغسيل تحت أشعة الشمس. احتفاءً بالأرجل السوداء المتعَبة والمبلَّلة عرقاً، بعد أن صارت بيضاء من غبار الساحة المفتوحة حيث تجري دوريات كرة القدم في الفافيلا. إنه احتفاء متأخّر ببوندادي، والعم شاحذ السكاكين، والعجوز إيزولينا، والسيدة أناليا، والعم توتو، وبيدرو كانديدو، والسيدة نورونيا، والسيدة ماريا، أم أنيبال، وكاتارينو، وليبا الكُبرى، وتيريزينا دي أوسكارلندا، ودونانا دو بادين.

رجال، ونساء، وأطفال تراكموا بداخلي، كما كانت تتراكم أكواخ الفافيلا التي كنتُ أسكنُها.

لا يريد أن تكون له جذور تشدّه إلى الأرض؟

لم يرضَ العم توتو بما وقع. يا إلهي، هل كان ذلك هو الحياة؟ لماذا لا يمكن أن نولد، نكبر، ونموت في الأرض نفسها، في المكان نفسه؟ إذا كنا نتوه في هذا العالم من بيت إلى بيت دون أن نعود، فما الفائدة من الاحترام والإيمان، حين نكون بعيداً، ونترك كل شيء وراءنا؟ ماذا يجدي الإيمان بالعودة إلى المكان الذي دفن فيه حبلُ سُرّتنا؟ إن كان ذلك صحيحاً!...

كان العم توتو غارقاً في الحزن. إنه في سنّ متقدمة، وعليه أن يرحل مرة أخرى، في الوقت الذي صار جسدُه يطالب بالتراب. إنه لن يغادر الفافيلا. هناك سيكون مقامه الأخير. يوجّه إلى العالم نظرات وداع. ينظر إلى زوجته الثالثة، إلى حفدته اليتامى، إلى بيته المطلي بالجير الأبيض، إلى الدجاجات وحظيرة الخنازير الفارغة.

- لقد فقدتُ قواي، يا ماريا الكبرى. اشتغلتُ أكثر من اللازم. أريد أن أقبض بيدَيّ على الأشياء، أمسك الفأس، وأقطع الخشب... أجلس وأفكرُ: ما الغاية من ذلك؟ قمتُ بذلك طوال حياتي... كددتُ، تزوجتُ ثلاث مرات، وترمّلتُ مرتين، أنت زوجتي الثالثة. رزقتُ أولاداً من الزوجتَين الأوليين. لقد رحل الأبناء أيضاً. رحيل محزن، قبل الأوان. عشتُ ما يكفي، وأنا ما زلت هنا حياً أُرزق. جسدي يطالب بالتراب. قبرٌ يكون آخر مكان أرحل إليه.

حسب ذكرياته الأولى، كان العم توتو يسكن في تومبوس دو كارانغولا. كان يعرف أنه لم يولد هناك، كما أن والديه لم يولدا هناك. كانوا جميعاً يشتغلون في الأرض مثل الدواب. يعرف أن أبويه كانا عبدَين وأنه ولد تحت قانون «البطن الحر»[1]. هل كان ثمة فرق؟ إن أبويه لم يختارا تلك الحياة، ولا هو اختارها.

كان جواو دا سيلفا يكتب بخطّ جميل ويتهجّى بصعوبة بعض الكلمات. صعب أن يجمع المرء حرفاً مع آخر ليركّب في الأخير كلمة، ثم يجمع كل كلمة إلى أخرى، لتظهر، في النهاية، تحت الكلمات المجتمعة فكرة، قول جميل أو حماقة.

كان الجميع ينادي على جواو دا سيلفا «توتو»، وهو اسم كلب، لكن ذلك لا يهم، لأن الكلب صديقُ الإنسان. ذات مرة، بعد أن جمع الحروف والكلمات، قرأ ما يلي:

كلبٌ صديق خير من صديق كلب.

لم يفهم معنى ذلك للوهلة الأولى. جمع الحروف مرة أخرى، ثم جمع الكلمات، وكاد يصيح فرحاً. حقاً، إنه من الأحسن أن يكون المرء كلباً وصديقاً لسيده، على أن يكون إنساناً ولا يكون صديقاً أبداً.

---

(1) قانون صدر سنة 1871 وينصُّ على أن الأطفال المولودين من أبوَين عبدَين يتمتعون بحريتهم بينما يظل الأبوان تحت العبودية. شكلت هذه النقطة مرحلة انتقالية في تاريخ نظام الرقّ الذي أصبح لاغياً في البرازيل انطلاقاً من سنة 1888. -المترجم-

عندما كان صغيراً أطلقوا عليه لقب «توتو». لماذا توتو وليس توتونيو أو تونيكو بل حتى جواوزينيو، أي جواو الصغير؟ الآن، وقد صار عجوزاً، أصبحوا ينادونه سو[1] توتو، العم توتو. كان عمّاً لأبناء إخوانه وأبناء إخوان الآخرين.

- لا، لقد سافرتُ كثيراً، وتسكّعت عبر هذه العالم القديم... أكلت وشربت الكثير من غبار الطرقات. أحتفظ في ظهري بآثار كل ما رفعتُ من أحمال. في الحقول، أحياناً، كان والدي يروي حكايات ويتحدث دائماً عن ألم غريب كان يعصر صدره في الأيام التي يشتدّ فيها الحرّ. ألمٌ كان سرمدياً مثل الله ومثل المعاناة.

كان توتو صغيراً، لكنه كان يفهم كلام والده، ويشعر بدوره، من حين إلى آخر، بتلك الطعنة في صدره. ألم حادّ وبارد، يجعله يطلق تنهيدات رغماً عن إرادته. كان والد توتو يسمّي ذلك الألم «بانزو»[2].

ثم توالت الأيام ومضت تحمل نصيبها من الألم.

ذات يوم، وهو لا يزال مع الزوجة الأولى، اضطر لمغادرة المزرعة التي ترعرعا فيها وهما يشتغلان في الحقول. وكان الأسياد يمرّون بظروف عصيبة فباعوا كل ما يملكون من أراضي. من أراد أن يبقى فله ذلك، ومن لم يرد فبإمكانه أن يرحل.

---

(1) سو، أو «Sô» باللغة البرتغالية، تعني السيد وهي طريقة في التعامل كانت فيما مضى تنمُّ عن الاحترام والتقدير، أما اليوم فقد أصبحت عبارة عامة ومبتذلة. -المترجم-

(2) بانزو، أو «Banzo» باللغة البرتغالية، هي نوبة حنين قوي كانت تصيب بعض العبيد من السود المنحدرين من أفريقيا فتؤدّي بهم إلى الموت، في بعض الأحيان. -المترجم-

جمع توتو زوجته وابنته وبعض الأسمال. لم يعد له ولا لزوجته أبوَين على قيد الحياة. اندلع وباء السلّ في البيت الكبير، فأهلك العبيد أيضاً. سوف يرحلان، لأنهما يريدان نسيان حكايات العبودية، حكايتهما وحكاية والديهما.

كانت أياماً وأياماً متتالية من الصراع من أجل البقاء وسط الأدغال. وحتى يصمدوا أمام الصعاب، كانوا يتذكرون حكايات أكثر هدوءاً في البادية، حكايات تتحدث عن الشساعة، وعن الرجال الأحرار، في أرض بعيدة. كانوا يفكرون في آلهة سود، حقيقيين، مثابرين، يختلفون كل الاختلاف عن الإله يسوع الذي طالما تحدّث عنه الأسياد والكهنة.

حينها يأتي ألم رقيق كالإبرة ويخترق الصدر.

كان عليهم أن يقطعوا النهر على متن زورق صغير مرتجل صنعه توتو وزوجته من جذع شجرة. لم يعد من الممكن أن ينتظروا أكثر من ذلك، وقد بدأ المطر ينزل منذ أسبوع. أخذ النهر يكبر، يكبر ويكبر. واليأس أيضاً.

- ما العمل، يا ميكيلينا؟ هل نقطع النهر أم نمكث هنا؟

- نقطع النهر، يا توتو. أنا خائفة، لكن علينا أن نقطع النهر.

- ميكيلينا، أمسكي بالبنت كاتيتا، وأنا أمسك بالأسمال. ولتساعدنا القديسة باربارا[1]!...

(1) يعتبر الكاثوليكيون هذه القديسة شفيعة لهم من الحمّى والموت المفاجئ. -المترجم-

لقد جاء كل شيء دفعة واحدة: النهر، والفيضان، وثقب الزورق المرتجل، والدوّامة، والحياة، والموت.

وصل توتو وحيداً إلى ضفة النهر. وفي الضفة الأخرى بقي جزء من حياته.

كانت سيدينيا سيدوكا

هادئة جداً في الأيام الأخيرة. بل قد لا يتعرّفها من كانوا يعرفونها من قبل! تظلُّ ساهمة في ركن من الحانة، ولم تعد تطلب ولو كأساً من ماء الحياة. كانت متسخة، شعثاء، وعيناها تحملقان في الفراغ. إن قدّموا لها جرعة، شربت، وإن لم يقدّموا لها شيئاً فإنها لا تطلب حتى ما تطفئ به عطشها.

- الحقيقة أنك عشتِ حياة رائعة، يا سيدوكا!...

امرأة جميلة، رغم تلك العينين الساهمتين وذلك الشعر الأشعث كالمجنونة! امرأة جميلة!... ومجنونة طيّبة، طيّبة للغاية.

فيما مضى، كانت تحب أن ترتدي ملابس بيضاء. ودائماً ما كانت تلبس فستاناً من دون ملابس داخلية، فيتكهّن الناظر إليها بعُريها الأسود تحت القطن. كان كل ذلك جميلاً ومُغرياً.

كانت الألسنة الشريرة والطيّبة على السواء تقول إن سيدينيا سيدوكا تملك «مؤخرة من ذهب». لا يوجد من ذاقَ لذتها ولم يصبح

من زبائنها. كلهم يذهبون ويرجعون. شيوخ، شبان، بل أطفال أيضاً. كانت نساء الفافيلا يكرهن سيدينيا سيدوكا. العجائز منهنّ يخفن على رجالهنّ، والشابات على عشاقهنّ والأمهات على أبنائهنّ الذين بدأوا يكبرون ويلاحظون مفاتن جسمها الجذّاب.

من حسن الحظّ أنها مجنونة، معتوهة، حمقاء! نعم، لحسن الحظ! يُقال إن شابة عذراء هي من ألقت أذى من السحر على سيدينيا سيدوكا بدافع الحسد. اكتشفت الشابة أن عشيقها يتردّد على سيدينيا سيدوكا. حدّثته في الأمر، لكن الكتكوت، الذي لم يطلع عليه الفجر بعد ليصير ديكاً، لم يرقه ذلك. رفع نبرة صوته، وأكّد أنه قد صار رجلاً، وأن أي رجل عليه أن يزور سيدينيا سيدوكا. والرجل ليس هو المرأة! لأن الرجل عليه أن يزور سيدينيا سيدوكا وإلّا جنَّ جنونه!

لم يرق ذلك الأمر الشابة، فردّت عليه قائلة:

– شابة عذراء، صحيح، لكنني لست بلهاء ولا مجنونة! هذا كلام رجل يريد أن يسيطر على امرأة! أتظن أن المرأة لا تنتابها الرغبة أيضاً، ولا تريد؟ المرأة دائماً تكبت رغباتها وتكبح نزواتها، خصوصاً إن كانت شابة عذراء مثلي!

لم يعجب هذا الكلام «الكتكوتَ الذي لم يطلع عليه الفجر بعد ليصير ديكاً». وجد أن للعذراء لساناً سليطاً، وأن عذريتها ليست بقدر ما يتخيّلها البعض، في نهاية الأمر.

ودون سببٍ واضح، ومنذ ذلك اليوم، في بضعة أيام، منذ حوالي شهر تقريبا، بدأت صحّة سيدينيا سيدوكا تسوء.

فكّر «الكتكوت الذي لم يطلع عليه الفجر بعد ليصير ديكاً» عميقاً في ملذات الحياة. أقسم ألّا يمس امرأة أخرى أبداً. وأكّد أنه يريد أن يصبح قديساً ويؤسّس ديناً خاصاً بالرجال. لن ينظر إلى أي امرأة أبداً.

كان لدوريات كرة القدم في الفافيلا طعمُ السعادة. تُقام في فترة معيّنة مرة كل سنة، وتستمر لعدة أشهر خلال أيام السبت والأحد. كان الملعب بقعة خالية تقع بين الفافيلا وحيّ الأغنياء. حيّ غني جداً وقريب جداً.

أثناء المقابلات، يرتفع غبار الملعب دوامات عند كل ركلة في الكرة. يسقط اللاعبون ويتمرّغون في الغبار. في الأيام الماطرة، يسقطون في الوحل، وأحياناً قد يصابون بجروح، لكن النزال يستمر.

عمال، ومتسكّعون، وهامشيون، الكل يجتمع وقت اللعب والمتعة...

يغرسون حول الملعب قضباناً من قصب البامبو ويعلّقون عليها رايات صغيرة. وتتناوب الأيادي على قنينة ماء الحياة، وبعض قناني الجعة. ودائماً ما يقدمون قطعاً من لحم الخنزير. يربّي كثير من أهل الفافيلا خنازير في الحظيرة، داخل الأكواخ. من لديهم الوسائل يتكلفون دائماً بشراء المشروبات، ويتبرع أصحاب الدكاكين

والحانات ببعض القنينات. يتلقّى الأطفال قطع الحلوى، والفشار، والمصّاصات. وغالباً ما يربحُ الأبطالُ نساءً. وتحدث شجارات ونزاعات، أحياناً بالسكاكين وأحياناً أخرى بالمسدسات. لكن قلَّما يسقط ضحايا، وإن حدث ذلك فإن الكرة لا ذنب لها، لأن ثمة أسباباً أخرى، غالباً ما تكون وارءها نساء.

كان بونندادي يعشق دوريات كرة القدم. لا يلعب، لكنه يملك قميص الفريق بكامله. كان يمثّل بالنسبة إلى اللاعبين نوعاً من التعويذة أو الفأل. حين لا يحضر بونندادي مقابلة من المقابلات يعرف الجميع أن شيئاً ما لن يكون على ما يرام.

– لم يحضر بونندادي اليوم، سوف يحدث أمر ما. إمّا سنرتبك وإمّا سنخسر المباراة!

ذات يوم، كادت المباراة أن تُؤجَّل. كان الفريق الخصم قوياً، والمطر يهطل غزيراً وبونندادي لم يأتِ بعد... ظلَّ الجميع ينتظر، وينتظر... وأخيراً، حضر المعني بالأمر. حمل معه ارتياحاً لقلوب الجميع، وبعض أشعة الشمس، التي كانت انفراجاً عابراً استمرَّ فقط وقت المقابلة.

كان الفريق المحلي سعيداً. ونزل ماء الحياة دافئاً في بلاعيم الجميع في ذلك اليوم البارد.

– بونندادي! يا بونندادي! أين كنت، يا رجل؟

– كنتُ بعيداً، هناك في كوخ فيلو غازوجينيا. العجوز مريضة، تتقيأ، وهي على وشك أن تموت...

لم يكن له بيت، لكنه كان يسكن في مكان ما، في قلوب الجميع.

– لماذا ينبغي أن يكون لنا بيت؟ –كان يقول– يجب أن يكون الإنسان كالطائر، يملك جناحَين يطير بهما. لقد جلتُ وعشتُ في أكثر من فافيلا، سكنتُ تحت القناطر والجسور... في الغابات والمدن... قضيتُ وقتاً طويلاً في هذه الفافيلا. إنها كبيرة مثل مدينة. فيها كثير من الأكواخ يمكن أن أدخل إليها، وكثير من الناس الذين أحبهم!

كان بوندادي اسماً على مسمّى[1].

كانت الأيام تمضي وبوندادي مستمرّ هناك. يأكل عند هذا ويشرب عند ذلك. كان صديقاً مشتركاً للأعداء. لا خائناً ولا وسيطاً. حين يصل إلى بيت أحدهم، لا يفتح فمه، ولا يقول شيئاً مهما حاولوا أن يجعلوه يتكلّم ليشي بما لديه. يغيِّر موضوع الحديث، يتحدّث، وسرعان ما تفشل المحاولة.

يعيش بقوة في كل مكان يحلُّ به. في كل بيت، مع كل شخص، في كل لحظة بؤس وعظمة كان يعيش الزمن المناسب واللحظة الملائمة.

لذلك كان بوندادي يومها يشجّع «فريق الأمل». أمسك الكرة، قبّلها ثم سلّمها للحكم. خرج من الملعب منتصراً، مسروراً، كما لو أنه اللاعب الذي سجّل الهدف الأول. فقط تذكر من أين جاء وتذكر الفَمَ الذابل المسلول لفيلو غازوجينيا عندما جاؤوا يسألون عن سبب

(1) تعني كلمة بوندادي، أو «Bondade»، باللغة البرتغالية «الطيبوبة». –المترجم–

تأخّره. لقد عانى بونادي كثيراً من هدم الفافيلا. ربما كان هو، والعم توتو، وماريا الصغرى وبعض الأطفال هم أكثر من تألّموا خلال تلك الفترة.

دوري كروي في الملعب

ومهرجان في جسد سيدينيا سيدوكا. فترة رجل جديد، رجل غريب يصل إلى جسد سيدينيا. تكون النساء مسرورات طالما ظلّت سيدينيا سيدوكا تتسلّى مع رجال الفريق الخصم، لأن رجالهنّ يبقون في مأمن.

كان من الرجال من لا يضربون الكرة إلّا لماماً، وهم لا يفكرون سوى في سيدينيا سيدوكا. شهرة المرأة تسبقها. كانت معروفة بجسدها وباسمها في تلك الفافيلا وفي فافيلات أخريات. أحياناً، يأتي لاعب مندفع من الفريق الخصم فيتجرّأ ويطلب من سيدينيا أن تأتي لتعيش معه. كانت سيدينيا ترغب كثيراً في معرفة أماكن أخرى. صدرها يتلهّف شوقاً لمناطق تجهلها. كانت تلك غوايتها. ثم، لماذا تبقى هناك؟ لقد أصبحت تعرف كل رجال الفافيلا. نعم، سوف تذهب!

شعرَ اللاعبُ المغامر بالفرح، والنصر، لأنه سيحمل معه أكبر كأس، «سيدينيا سيدوكا، صاحبة المؤخرة الذهبية». ينظر من حوله،

فيرى أن الجميع يراقبونه. وإليه ينظرُ خلسة الرجالُ القدامى، أسياد سيدينيا سيدوكا المزعومين.

أن تنام معه أو مع غيره... يمكنها أن تفعل ذلك، فهي تحظى بالشهرة، والسمعة داخل الفافيلا، وسيتحدث رجل آخر عن ملذّاتها. لكن، سترحل سيدينيا، ستجتاز الحواجز وحدود الملعب المغبر... كلا! لن تكون هي مجنونة ولن يجنّ جنونُه هو حتى يرتكبا حماقة كهذه. كان قلب سيدينيا سيدوكا يخفق بقوة أكبر فأكبر. أي رغبة تلك في الرحيل؟ كان فستانها الأبيض متّسخاً بالغبار، مدنّساً. لكن، هناك ما هو أحسن من هذا كله. وراء الأكواخ حيث يغيّر الرجال ملابسهم هناك ما يكفي من الفضاء، وهناك ستستلقي على الأرض. خفضت عينيها وأومأت بإشارة.

امرأة حسود، بالكاد تعرف الرجل الذي قضت معه ثلاثين سنة، همست عالياً في أذن امرأة أخرى:

- انظري، إلى أين تتجه سيدينيا سيدوكا...

كانت الجدة ريتا تنام منكمشة معها. وحين أرى الجدة ريتا يستعر فضولي. أنظر إلى الجدة ريتا من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. أبحث عن أي علامة، عن أي أثر للأخرى في وجهها، وفي جسدها بكامله. فلا أرى علامة

ولا أثراً. ومع ذلك، ومهما كان فضولي، كنتُ أحتفظ بشيء من المسافة. كانت الجدة ريتا تسحرني، بيد أنني كنتُ خائفة، خائفة جداً من الأخرى...

كانت الجدة ريتا تحتفظ بكثير من الحب في صدرها! وكانت أيضاً تملك قلباً كبيراً ولم تكتشف ذلك إلّا بعد أن صارت شابة. ذات يوم، شعرت بألم، وكان سيدها طبيباً، فأخذ يفحصها هنا وهناك، ثم شرح لها لماذا تشعر أحياناً بكل هذا التعب. في بعض الأيام، يبدو كأن قلبها يريد أن يخرج من فمها. أخبرها الطبيب أنها لن تعيش طويلاً. وكان مخطئاً. فقد كانت هناك، عجوزاً، تجاوزت السبعين، وربما الثمانين.

كانت الجدة ريتا ضخمة. بدينة وطويلة القامة. لها صوت قوي. يعرف الجميع أنها قادمة. تعيش من الكلام ولا تصمت أبداً. لم أرَ قط الجدة ريتا صامتة. إن لم تتحدث، تغنّي. الفمُ المغلق لا يدخله الذباب، لكنه لا يعرف الضحك والابتسامة.

- الجدة ريتا، كيف هو الجو اليوم؟

- على مايرام، يا ابنتي! حسن جداً.

- لكنها تمطر كثيراً.

- وماذا لو أمطرت، يا ابنتي؟ المطر جيد مثل الشمس...

كانت الجدة ريتا جميلة حقاً! صوتها قوي كالرعد. كانت مثل عاصفة هادئة.

أنهارٌ من الحب تجري داخل الجدة ريتا، وفي صدرها أمطار ورياح من الطيبوبة.

ووحيداً إلى الضفة الأخرى للنهر. وصل مجرّداً من الأشخاص ومن الأغراض القليلة التي اقتناها. أين هما ميكيلينا وكاتيتا؟ لا! لا يمكن... هل فعلاً... لا! هل يكون النهر قد شربهما معاً؟

كان النهر يشرب كل ما يصادفه في طريقه. يشرب الأحجار، والأخشاب، والأوهُد، والبيوت، والحيوانات، والبشر، ومزيداً من البشر...

النهر، مثل الحياة، يحمل كل شيء دفعة واحدة. يحمل كل شيء بسرعة، يكفي أن يغمض الربّ عينَيه لحظة، ويتوقف عن حراسة الناس برهة حتى يأتي النهر ليشرب، ويبتلع كل شيء.

- والآن، كيف لي أستمر في الحياة من دون زوجتي ولا ابنتي؟ ماذا سأفعل؟ ما الذي أفعله الآن بجسدي، بفكري، والكدّ لوحدي؟

ثم خطرت له فكرة: «ماذا لو عدتُ إلى النهر؟ ماذا لو سلّمتُ جسدي لعطش النهر؟ لو عدت، من يدري، ربما استطعت أن أجد هناك في الأسفل أو في أي نهر آخر، ذانك الجسدين العزيزين؟».

توتو، الذي طالما عُرف في شبابه بالشجاعة والملاحم والمغامرات، ظلَّ جالساً هناك في الضفة الأخرى للنهر. سالماً ووحيداً. ظلَّ هناك جباناً، لا يملك الشجاعة ليعود إلى النهر وإلى الحياة.

– ماريا الكبرى، يُقال إن الحياة ربح وخسارة. وأنا أقول، الحياة خسارة مستمرّة، وفقدان كبير كل الوقت. فقدتُ ميكيلينا وكاتيتا. فقدتُ أبي وأمي اللذين لم أعرفهما حقّ المعرفة، لأننا كنا نشتغل عبيداً في الحقول. فقدتُ أرضاً، وموطناً كان والدا والدَيّ يقولان إنها مكان شاسع، فيه غابات وحيوانات، وأناس أحرار، وشمس قوية... والآن، أفقد مكاناً كنت أظنني مالكه. أفقد الفافيلا! أمر جيد أن يطالب جسدي بالتراب. لن أذهب بعيداً. لو كنتُ أكثر شباباً لبدأت من جديد في أي مكان. بدأتُ فائضاً بالألم، لكني بدأت حياة أخرى حين وصلت سالماً إلى الضفة الأخرى للنهر. مضت الأيام، وظننتُ أنني سأربح شيئاً ما. لكن، لا شيء غير الألم. الألم دائماً يضرب قلوبنا. ينزل الألم حجارة حادّة وكثيرة! ألمٌ يعصرنا، حادّ، وقوي. حجارة كثير، كثيرة! وخاصة يوم ماتت توينا السوداء.

ومع ذلك، كان توتو رجلاً صلباً. لا يموت هكذا، لأي سبب. ربما لن يموت أبداً. حجارة حادة تضرب صدره، وتدمي قلبه لكن العم توتو صلب. سالم ووحيد.

ماريا الكبرى، امرأة صلبة بدورها. كانت هي زوجة العم توتو الثالثة. حين التقت بالرجل، كانت هي أيضاً تملك مجموعة كبيرة من الحجارة. جاءت قادمة من عدة آلام وربما لذلك كانت تضحك فقط في دواخلها. يمكن أن تكون مسرورة، تكاد تكون فرحة، لكنها لا تظهر إحساسها. «الحزن له أذنان كبيرتان وسمع مرهف»، كانت تقول. «يكفي أن يطلق المرء قهقهة عالية، حتى يسمعه ذو الأذنين الكبيرتين فيسرع ليلفّه بالغمّ».

مرّت أوقات كانت ماريا الكبرى تضحك، تبتسم، بل تقهقه. أيام خوالي، أيام الطفولة. كانت جامحة، سعيدة، تقضي يومها تنطُّ في الحقول. حياة الحقول. كان والدها، بين اختفاء وآخر، قبل أن تسوء أحواله تماماً، يقوم بشيء ما في فترات صحوه. يزرع الأرض التي كانت في ملكه، ويبيع المحاصيل إلى المزارعين. وكان أيضاً يصنع الصلبان، والكراسي، والموائد وأشياء أخرى من الخشب. أما الأم، فكانت تعتني بالبيت، ونصف جسدها مشلول. يُقال إنها خرجت حافية القدمين في جوّ بارد فأصابها المرض.

يروي العم توتو وماريا الكبرى حكايات لبعضهما فيتبادلان الحجارة من مجموعتيهما. كانت ماريا الكبرى تجلس هادئة هناك فوق الصندوق، تكبُر وتصغي لكل شيء. تُعرَضُ الحجارة الحادّة التي يجمعانها معاً على ماريا الصُّغرى، فتختار منها أكثرها بتراً وتحتفظ بها في أعماق قلبها.

كانت هناك حكاية تردّدها ماريا الكبرى دائماً، حدثٌ يعود لفترة طفولتها كانت تحكيه وتعيد حكيه للطفلة ماريا الصغرى.

ذات يوم، كانت ماريا الكبرى، وهي لا تزال طفلة، تنطُّ كالعنزة أمام جدها. كان ينظر إليها، يفرك عينيه ويدخّن الغليون. وذات مرة، اكتشفت ماريا أنه كان يبكي.

- جدي، هل أنت تبكي؟

- نعم، جدك يبكي!

لقد كانت تلك الفتاة، بساقيها الطويلتين، وقفزاتها كالعنزة، صورة طبق الأصل لواحدة من بناته، تلك التي فقدها ولم يرَها قط بعد ذلك.

كانت أُمّاً تُرضعُ طفلة سيّدها. ذات مرة، ثارت الأَمَةُ على سيدها، فأمسكت بقميصه، ورجّته، ثم رجّته. ربطوها إلى عمود التعذيب، وكانوا يهمّون بضربها حين بدأت الطفلة التي ترضعها تبكي، تصرخ، تزعق، يُغمى عليها ثم تستفيق حتى كادت تجنّ، وصاحت:

- لا تقتلوا أمي السوداء، لا تقتلوا أمي السوداء.

فقرّر الأسياد أن يبيعوا الأمة ثم انقطعت أخبارها منذ ذلك الوقت.

عندما كانت ماريا الكبرى طفلة، أي عندما كانت ماريا فقط، كانت كلما قفزت، مثل عنزة أمام جدها، كأن حجراً حادّاً يصيب صدر ذلك الرجل العجوز.

تمضي هادئة في الفافيلا. من نافذة غرفتها المطلية بالجير الأبيض، كانت ماريا الصغرى تتأمّل غروب الشمس. كان منظراً جميلاً جداً. كل شيء يكتسي لوناً أحمر. الجبل هناك بعيداً، الفافيلا، والأكواخ.

إحساسٌ غريب كان يهزّ دواخل ماريا الصغرى. يوماً ما، دون أن تعرف كيف، ستحكي عن كل ما جرى هناك. سوف تحكي قصتها وقصة الآخرين. لذا كانت تصغي بعناية لكل شيء. لا يضيع منها أي شيء. إنها تهوى جمع نوعَين من الأشياء: الطوابع البريدية وما تسمعه من حكايات. تملك طوابع من عدة مناطق من البرازيل وبعض الطوابع من أماكن مختلفة من العالم. تربحها، تجدها، تطلبها. كان الكاهن الرئيس في كنيسة حيّ الأغنياء بجوار الفافيلا رجلاً أجنبياً. تذهب ماريا الصغرى وتطلب منه الطوابع. تتسلّمها من مشغّلات أمها وخالتها. كان العم تاتاو، بدوره، يهديها أجمل الطوابع.

شارك العم تاتاو في الحرب. وكان يروي لها أيضاً بعض الحكايات، لكن ماريا الصغرى لم تكن تحب حكاياته. كانت حكايات بمذاق الدم. الحكايات الجميلة، المرحة والحزينة، كانت هي حكايات العم توتو وحكايات الخالة ماريا الكبرى. كانت تجمع تلك الحكايات في ذهنها وفي أعماق قلبها، وهي الحكايات التي سوف تعيد روايتها.

كانت ماريا الصغرى تكبر. تتأمل غروب الشمس. تقرأ. أحياناً، يصيبها الغمّ فتبكي ويلمُّ بها قلق شديد! كانت تريد أن تعرف معنى الحياة. تريد أن تعرف ما يختبئ في الخلف، داخل وخارج كل كوخ، وفي كل شخص. تغلق الكتاب وتغادر البيت. هل تذهب إلى النافورة العليا أم إلى النافورة السفلى؟ اليوم، نفسي تميل إلى المعاناة. سأذهب لأزور الجدة ريتا. سأطلب منها أن تأخذني لأرى الأخرى. يمكن أن أذهب لأرى ذلك الجرح الذي أصاب ماغريسيلا في رجلها. جرح مقرف لكني سأراه. سوف أستمع إلى تونيو سينتادو وكومادري كولو يتشاجران. يمكن أن أرى تيريزا، من يدري، ربما تقوم اليوم بشنّ هجومها؟ يمكن أن أمرَّ بهدوء، أمشي على رؤوس الأصابع، قرب كوخ تياو صاحب السكاكين. يعجبني الاستماع إليه وهو يشحذ السكاكين. أتخيّل الألم الذي قد يصيبني لو قطع لحمي. اليوم أريد حزناً أكبر، أكبر، أكبر... اليوم أريد أن أنام وأنا أشعر بالألم.

يبدو أن ماريا الكبرى كانت تقرأ رغبات ماريا الصغرى وتتكهّن بها. حين ترغب الفتاة في الألم كانت الخالة تحكي لها قصصاً حزينة لتتذكرها. تحكيها بصوت متقطع بالنحيب. نحيبٌ جاف، من دون دموع. تعرف أنها تبكي من صوتها الأجشّ وفمها الجاف.

مكتبة
t.me/t_pdf

كانوا دائماً يحسبون

والد ماريا الكبرى شبه مجنون. كان ذكياً فوق العادة، يستقصي الحياة، لكنه لا يستطيع أبداً أن يُخرج ما يحتدم في نفسه من غليان. كان رجل تفكير، يتخيّل الأشياء ويخمّن الأسباب. عندما يعود من جولاته، يحكي أخباراً لا يصدقها أحد. ما إن يصل إلى القرية ويفتح فمه، حتى يقول الجميع: «ها قد جاءت واحدة أخرى ممّا عوّدنا عليه لويزاو دا سيرا».

أول مرة رأت فيها ماريا الكبرى والدها، كانت في الشارع. خرجت لتشتري تبغ اللفّ لجدها، فدخلت إلى متجر باليوسا ورأت رجلاً يشبه جدها تماماً، لكنه شاب. كانت عينا الرجل ساهمتين. اقتربت ماريا وطلبت من والدها أن يباركها. فطلب هو من الله أن يباركها، دون أن ينظر إليها. كانت عيناه ساهمتان، ونظرته فارغة. كان شبه مجنون.

ماريا، غير الكبيرة بعد، كانت في سنّ السابعة، ربما.

كان جدُّ ماريا الكبرى

يبكي دائماً كلما رأى الفتاة تلعب وتنط كالجدي. كانت الآلام تتراكم داخل الجد. فقدَ كل الأبناء الذين رزق بهم. الابن الوحيد

الذي ما زال على قيد الحياة هو لويزاو، لكنه مجنون. كان لويس دائماً طفلاً ذكياً، يستقصي الأشياء ويخمّن الأسباب. وكان متمرداً، يكره الأسياد.

عندما باعوا أخته لأنها قبضت على سيدها من قميصه، كان هو يتقيأ حقداً ويتوعّد بالانتقام، وإضرام النار في البيت الكبير. بكى طوال الليل، ثم تفاجأ والدُه حين كلّمهُ الابن لساعات طوال بلغة تلك الأرض القصية. كان الوالد يظن أن ابنه لا يتحدث غير لغة البيض. هكذا! مفاجأة وفرح. كان لويس يتكلم تلك اللغة الجميلة! وفي اليوم الموالي، اختفى لويس. بل إن جدّ ماريا ظنَّ أن الأسياد باعوا الشاب أيضاً، بعد أن باعوا زوجته وأبناءه الآخرين. هل يكونون قد قتلوا الشاب؟

مرّت الأعوام، والرجل لا يتمرد، يشعر فقط بالألم. كان البانزو يغدو حياته...

رحل أولئك الأسياد، باعوا المزرعة وكل شيء. «لا يهم الرجل هناك» كان يفكر، «إن الأبيض، مبتسماً أو غير مبتسم، يظل هو السيد».

ذات يوم، ودون سابق إنذار، ظهر الفتى، وعاد شاباً، رجلاً كاملاً. كان لويس ذا لحية تغطي وجهه، طويل القامة، طويلاً جداً، ودائماً بتلك النظرة الساهمة.

- أبي، يجب أن نرحل من هذا المكان، ولا داعي حتى لنتحدث مع سيد المزرعة. لقد اكتشفتُ خلال جولاتي أشياء كثيرة... منذ وقت طويل لم يعد الأبيض سيد الأسود. لم يكن لهم حقّ في أن يبيعوا ليبا، ولا أمي، مع أبنائها، ولا أن يبعيوا أيّابا، أختي. إنني أملك بعض المال، لأنني كددتُ كثيراً، تعلّمتُ صناعة الخشب وتجارته.

ثم أخذ الرجل العجوز والرجل الشاب الطريق. كان العجوز صامتاً والشاب كتوماً. اقتنى الرجل الشاب قطعة أرض، وأصبحا يزرعان ما كان في ملكهما معاً، الأب والابن. وكانت الأيام تمضي هادئة، جميلة. كان لويس يفكر كثيراً في الأشياء، ويتحدث مع نفسه. كان الأب ينظر إلى الابن، والابن ينظر إلى الأب، وحيدين معاً. كان الأب يرغب في أن يرى ابنه متزوجاً، له امرأة وأبناء، ليحفظ السلالة ويضمن الذرية.

فحقّق لويزاو دا سيرا رغبة والده. سوف يتزوج، وستكون امرأةٌ سوداء هي الهدوء والسكينة والبصيرة التي تجلي جنونه. سوف يرزق أطفالاً: ماريا، تاتاو، ناتيفيدادي، إليديا، وجوانا. وحين يكبر، سوف يبكي كثيراً، وهو يرى ماريا، حفيدته، هناك قبالته. في تلك اللحظات، كان كأنه يرى الحياة تتكرّر. كانت ماريا صورة مطابقة لصورة ابنته أيّابا، تلك البنت التي اختار لها اسماً جميلاً. يومها كان الأسياد يشعرون بالبهجة أو الطيبوبة في قلوبهم فسمحوا له باختيار الاسم. واستطاع أن يسمّي ابنته أيّابا، ذلك الاسم الذي يعني «الملكة» في لغة شعبه.

كانت ماريا صورة مطابقة لأيّابا، وتبدو مثل الملكة.

كان بوندادي يعرف كل بؤس الفافيلا وعظمتها. يعرف أن هناك فقراء قادرون على أن

يتقاسموا ما لديهم، ويقدموا القليل ممّا يملكون وأن هناك فقراء أكثر أنانية في بؤسهم من الأغنياء الغارقين في غناهم. يعرف كل كوخ، وكل ساكن. له قدرة على الولوج إلى قلوب الجميع. في النهاية، لا يشعر المرء كيف يحكي كل شيء إلى بونندادي. عجيب كيف أنه كان يطّلع، في النهاية، على أسرار الجميع دون أن يحتاج إلى طرح السؤال. كان رجلاً قصيراً، شبه صموت، لا يشغل حيّزاً كبيراً. ربما لذلك كان يستطيع أن يكون في كل الأمكنة. كان بونندادي اسماً على مسمّى.

ذات يوم، قبل عدة سنوات، وصل بونندادي إلى الفافيلا يحمل كيساً من الخيش فوق ظهره. كانت عيناه حزينتان وفمه جاف من العطش والجوع. كان أول باب طرقه هو باب بيت الجدة ريتا. هناك أمضى بقية اليوم، أكل ونام. في اليوم الموالي، أخرج من الكيس كنزه، تلك القبعة الجلدية، ثم طبع قبلة على جبين الجدة ريتا وخرج ليرى الآخرين. منذئذ لم يتوقف قط. كان الجميع يحتفظ في بيته بركن لبونندادي، في انتظار أن يصل. وهناك يملأ السرير وينام. أثناء مقامه، لم يكن قط عالة على الغير، بل دائماً يقدّم يد المساعدة.

لا يعرف أحد كيف كان دائماً يحمل معه بعض النقود. يشتري حليباً، يجلب دواءً أو يحمل خبزاً ربما يحتاجه أهل الكوخ في ذلك اليوم.

كثُر القيل والقال عن غنى بونندادي، وما يملكه من أراضي في بيرنامبوكو أو بارا. وقيل إنه يملك أموالاً تدرّ عليه الفوائد. والحقيقة

أن بونـدادي، مرة كل شهر، كان يغادر الفافيلا صباحاً ولا يعود إلّا مع غروب الشمس. وكان يُقال إنه كان يقصد البنك ليأخذ أرباح أمواله. هذا ممكن! في اليوم الموالي، كان الأطفال يستلمون قطع الحلوى بينما يزور هو المحتاجين، ومن هم في أمسّ الحاجة إلى المساعدة. كان أيضاً يقتني قنينة من ماء الحياة ويشربها بالكامل. ثم يضطجع في ركن من الكوخ الذي يكون فيه، وينام كل الوقت حتى يختمر سكره. لا يُزعج أحداً، ولا يستقصي أحدٌ أمرَهُ، بل لا يفعل ذلك حتى الأطفال، أو ماريا الصغرى التي كانت تُجسِّد الفضول وحبّ الاستطلاع. كان الجميع يحترمون سرّ بونـدادي.

كانت ماريا الصغرى تملك راوي حكايات آخر في شخص بونـدادي. أشياء لم يكن يحكيها للكبار، كما كانت تعرف. كان بونـدادي يروي الحكايات الحزينة بدموع في عينيه، أما الحكايات المرحة فيرويها بفرح طفولي يعلو وجهه ويديه.

كانت ماريا الصغرى تريد حكايات ومزيداً من الحكايات كي تضمّها إلى مجموعتها. أحياناً ينتابها إحساس بأنها، يوماً ما، سوف ترويها مرة أخرى بدورها، لكنها لا تعرف كيف سيكون ذلك. كانت شيئاً كثيراً يستحيل الاحتفاظُ به في صدر واحد.

- ماريا الصغرى، هل تريدين حكاية حزينة؟

كانت دائماً تقريباً تفضّل المرارة. لم تكن تَرى في الأكواخ، والأشخاص، وحياة أهل الفافيلا، ما يبعث على الفرح. طلبت الحكاية الحزينة، والأقرب إلى الحقيقة.

وانبرى بونـدادي يروي الحكاية:

– ماريا الصغرى، في كوخ من تلك الأكواخ هناك طفلة في سنك. كم هو سنك الآن؟ ثلاثة عشر عاماً. نعم، ثلاثة عشر. الطفلة تحلم. أحلام الطفولة. تريد أن تقبض في كفّيها على النجوم والقمر. تريد أن تراكم الشوكولاتة والتفاح. أن تملك مزلجاً ذا بكرات لتخطو خطوات كبيرة... أمها تحلم بالحليب، والخبز، والمال. تحلم بدواء لتعالج ابنها المريض، وبعمل لزوجها الثائر السكير. تحلم بمستقبل أقلّ فقراً لابنتها. أمُّ الطفلة تحلم ألّا تعرف الحرمان. تحلم بالمال، والمال، والمال...

توقّف لحظة، ثم استأنف كلامه:

– ذات يوم جاء ممثّل المعمل الذي يزوّد الدكاكين بالتبغ. شخص لا يشبهنا، يتكلم بنبرة عالية، ويضع يديه في جيبَيه. ظلت أم الطفلة تحدق في الرجل وهو يضع دائماً يديه في جيبَيه. تبادلا النظرات. تكهّنت المرأة برذيلة الرجل. أدرك الرجل حرمان أم الطفلة. كان الرجل سريعاً، مباشراً، صريحاً وقاسياً. «كم تريدين، يا امرأة؟». لم تجبه أم الطفلة. أخرج الرجل رزمة من الأوراق النقدية. نادت الأم على الطفلة: «نازينيا، اذهبي صحبة هذا الرجل!». أخذ الرجل الطفلة من يدها وذهب إلى وجهات أخرى. لم يتوجّه إلى المعمل، كان عليه أن يهرب، لأنه سرق مال صاحب المعمل. جمعت أم الطفلة أغراضها، والابن المريض، والزوج الثائر السكّير. بحثت عن الطريق، لأنه كان عليها أن تفرَّ.

ليلة سمعت ماريا الصغرى حكاية ألم الطفلة الأخرى نامت وحلمت بصديقتها.

«كانت نازينيا تشعر بالألم، والدم، الدم، الدم... كأن الحياة كانت تهرب منها، بداية من تلك النقطة بين ساقيها. أغلق الرجل فمها واستمتع بهدوء».

يومَين بعد ذلك، انتشر الخبر في الفافيلا مثل النار في الهشيم. لقد باعت تيتي دو ماني ابنتها. اشتراها الرجل بمال مسروق. كانت الشرطة تقوم بالتحريات. لم يعرف أحد أين رحلت رفقة ابنها المريض وزوجها السكّير. وكان ذلك موضوع حديث الناس لعدة أيام، سواء في النافورة السفلى كما في النافورة العليا.

كانت ماريا الصغرى تعرف ذلك قبل أن ينتهي إلى علم الجميع. كانت تشتاق إلى صديقتها نازينيا، تشعر بألمها وتقلق لمصيرها.

وصل أليريو الأسود

ذات فجر ماطر. جاء مبلّلاً حتى النخاع. كان جميلاً جداً، ومميزات السود واضحة عليه كل الوضوح.

أحبت ماريا الصغرى أليريو الأسود. كانت طفلة، لكن شيئاً من المرأة كان قد بدأ يغلي بداخلها. أحسن ما أعجبها في أليريو الأسود فمُه. ظلت تفكر طويلاً في شفتيه اللّحيمتين. وصادف وصول أليريو الأسود بيع نازارينيا. في أحلامها الليلية، كانت ماريا الصغرى

تخلط كل شيء. كان الرجل الذي اشترى نازارينيا هو أليريو الأسود. ونازارينيا هي نفسها. بيد أنها لم تكن تعاني كل ذلك الألم. كان فمُ أليريو الأسود يواسيها بعض الشيء. ثم تستيقظ مبللة بالعرق، وهي تبكي.

شيء واحد كانت ماريا الصغرى واثقة منه: ماما جوانا لن تبيعها أبداً.

كانت ماما جوانا

امرأة حزينة. لا تضحك أبداً. وسواء كان ذلك من قبيل الصدفة أم لا فقد كانت هي أخت ماريا الكبرى. تنحدر من أم لها جانب أيمن أبله، نائم، وأب مجنون، معتوه وأحمق.

كانت ماريا الكبرى تضحك بداخلها، تختبئ، وتهرب من الحزن، أما ماما جوانا، فلم تكن تضحك، لا بداخلها ولا بخارجها. ربما كانت ماما جوانا تبكي، فتهتزُّ دواخلُها باستمرار. كانت جميلة وحزينة. لها ثؤلول فوق أرنبة أنفها بالضبط.

لم تحصل ماريا الصغرى قط على حكاية من ماما جوانا، رغم أنها تملك الكثير منها. لا بدَّ أن حكايات ماما جوانا جميلة وحزينة مثلها. لا بدَّ أنها حكايات حب.

كانت ماريا الصغرى واثقة من شيء واحد: ماما جوانا لن تبيعها ولن تبيع أي أحد من أبنائها. قد تأكل ما يعجنه الشيطان من خبز، قد تذهب إلى غياهب الجحيم، وربما تقتل إن دعت إلى ذلك الضرورة، لكنها لن تبيع أي واحد من أبنائها. كانت ماما جوانا مثل دجاجة مع كتاكيتها، تحضنهم وترصد أدنى خطر يلوح في الأفق. تواجه العالم بكلّ هشاشتها. كانت ماما جوانا ترضع، تربّي وتحب ما لديها. وماريا الصغرى تعرف ذلك.

وتعرف أن ماما جوانا امرأة لا تحب كثرة الكلام. ماما جوانا امرأة تفيض حباً.

فجر وصول أليريو

الأسود إلى الفافيلا، كان المطر ينزل غزيراً. طرق بيت ماريا الصغرى، ورغم أن العمّ توتو أصبح عجوزاً تماماً فقد سمح لأليريو الأسود بقضاء ما بقي من تلك الليلة هناك. وما إن بزغت شمس النهار حتى نهض أليريو الأسود وخرج، فشعر العمّ توتو بالارتياح، شعرت ماريا الكبرى باللامبالاة، وماريا الصغرى بنوع من الحزن.

وسرعان ما وجد أليريو الأسود سقفاً يحميه بالقرب من هناك. واختار لنفسه مقاماً في بيت دُورا، في جسدها وفي قلبها.

شعرت ماريا الصغرى أن أليريو الأسود يخبئ سرّاً. أدركت أن في عينيه نظرة رجل هارب. فيما بعد، سوف يروي لها بونادي حكاية سرعان ما ستكتشف أنها حكاية أليريو الأسود.

لن تنسى أبداً ذلك الرجل الذي وصل مبلّلاً حتى النخاع، بنظرته الملغزة، وشفتيه اللّحيمتين. ثم صارت تلك الصورة هاجساً لا يفارقها لسنين طويلة. ظلت ماريا الصغرى دائماً تبحث عن ذلك الإحساس الأول، عن ذلك الانطباع الذي تركه أليريو الأسود في الجسد، وفي سلوك الرجال الذين ستراهم لاحقاً، في يوم من الأيام.

في الفافيلا، كانت هناك عائلة تملك محلاً تجارياً كبيراً. لم تكن تجارتهم دكاناً بسيطاً أو متجراً، بل بقالة حقيقية. كانت هناك بقالات أخرى في الفافيلا، اثنان أو ثلاثة، بيد أن تلك البقالة كانت هي المفّضلة لدى الجميع.

يبيعون كل شيء، حتى الحمّام. أمرَ صاحب البقالة ببناء غرف خشبية صغيرة خارج المحل، وزوّدها برشاشات مائية. كان الرجال -دائماً الرجال- يشترون تذكرة ويذهبون ليستحموا. لا بدَّ أن ذلك كان جيداً، حمّام برشاشات، كما لو كان مطراً ينزل فوق الجسد... نعم، كانت ماريا الصغرى تريد أن تجرب الرشاش.

كانت بقالة سو لاديسلاو تقع قرب النافورة العليا. كانت تلك المنطقة من الفافيلا تحظى بماء كثير تطلقه البلدية. أمرَ سو لاديسلاو بوضع نافورة خارج بقالته، هناك قرب غرف الاستحمام. ومن أراد أن يأخذ الماء أو يغسل الملابس، عليه أن يدفع له بعض النقود.

لم تكن عائلة ماريا الصغرى تستعمل ماء تلك النافورة. كان العم توتو يرى أن ذلك تبذير لا حاجة إليه. كانت ماريا الكبرى تغسل الملابس وتجلب الماء من النافورات العمومية ولأن ماما جوانا، رغم كثرة زبوناتها، كانت دائماً في حاجة إلى المال، لكثرة ما لها من أبناء عليها أن تعيلهم...

لم تكن ماريا الصغرى تحب أن تجلب الماء أو تغسل الملابس في نافورة بقالة سو لاديسلاو، بل ما كان يعجبها هو أن تجرّب الحمّام بالرشاش. باستثناء فرح الرجال الذين يخرجون من غرف الحمّام الصغيرة، وهم لا يزالون عراة من الحزام وما فوقه برؤوسهم المبلّلة، لم يكن أي شيء مثيراً هناك. لا شيء يستحقّ الرؤية.

كانت تحدث بعض الأمور. هناك، عند باب البقالة كان يقف الرجال، بعضهم سكارى، وبعضهم متسكعون وكثير من العمّال. كان من بينهم من يصرف كل ماله في الشرب، لذا تأتي النساء بحثاً عنهم وهنّ يصحن ويتشاجرن أحياناً مع سو لاديسلاو. لم تكن ماريا الصغرى تجد تسلية في ملاحظة هذه الأمور.

كانت تفضّل النافورة العمومية. تحب أن ترى عدوانية الناس في الأيام التي يشحُّ فيها ماء الحنفيات. يعجبها الاستماع إلى الحكايات التي تتهامسها النساء، أحياناً. تحب أن تظل هناك ترقب،

وتحدّق في البوابة على أمل أن ترى الأخرى. كان لا بدَّ أن تنتظر اللحظة التي تأتي فيها الأخرى، خفية، لتتأمّل العالم.

تحرّك شبحٌ،

وحين رمق الجسدُ الغامضُ عينَي الطفلة ترقبانه تبخّر. كان من الصعب مواجهة نظرات الناس. في الآونة الأخيرة، حتى ابنها بدأ ينظر إليها نظرة مختلفة. كانت ترى نوعاً من الخوف في عينَيه كلما اقترب منها. هل هذا ممكن؟ حتى ابنها؟ كانت دائماً تتحاشى نظرات الآخرين. تريد أن تخرج إلى الزقاق، لكن الشجاعة تخذلها. وأسوأ ما في الأمر تلك السوداء الصغيرة، بنظراتها المتفحّصة، القاسية واليائسة. وذلك الاستقصاء الذي لا ينقطع.

في الآونة الأخيرة، لم تعد ماريا الصغرى تبرح النافورة. أثناء أيام الدراسة، كان بإمكان الأخرى أن تظل وراء البوابة، على الأقل لفترة من النهار، فيمرُّ الناس وقلّما يتذكرون أنها هناك. أما أيام العطل، فيصبح الأمر عذاباً! تظلُّ ماريا الصغرى طوال النهار في النافورة تغسل الملابس أو تجلب الماء.

«لستُ أدري أين تذهب الطفلة بكل هذا الماء! لا أستطيع أن أصل ولو إلى الباب. لا أريدها أن تراني. النظرات الوحيدة التي أطيقها هي نظرات ريتا. إنها الشخص الوحيد الذي يعرف كيف ينظر إليّ نظرة عادية. أما الآخرون فينظرون إليّ وهم يسعون لمشاهدتي».

كرة القدم، كانت هناك لحظات أخرى تتنفس خلالها الفافيلا هواء الفرح، وهي حفلات شهر يونيو. يوقدون ناراً كبيرة في أحد البيوت. يجمعون المال ممن يريد أن يتبرع، ويشترون حساء الذرة وما يستلزمه من موادّ، فيصبح كل شيء جاهزاً للحفلة. إن جاء شخص لم يساهم في النفقات، فإنهم يرحّبون به ولا يرفضون له طعاماً. لكن كانت هناك حفلة من حفلات شهر يونيو، تكتسي طابعاً رسمياً في الفافيلا، إنها حفلة العريف أرميندو.

كان العريف أرميندو، قبل كل شيء، برازيلياً مخلِصاً. خلال كل الأعياد الوطنية، وربما بسبب ما ورثه من روح عسكرية في الثكنة، كان يُشغّل الحاكي، ويطلق النشيد الوطني، الذي يرتفع عالياً عبر مكبّر الصوت فتنتشر الموسيقى في كل ركن من أركان الفافيلا. يوم السابع من سبتمبر[1]، يُسمع النشيد الوطني طوال اليوم. كما يسمع يوم الاحتفاء بسيدتنا المتجلية، حامية البرازيل. في هذا اليوم أيضاً، تُتلى التسابيح والترانيم. ثم يهيّئون مائدة تعجُّ بشتى أنواع الحلوى والبسكويت. يأكل الجميع. البعض لا يذهب للصلاة، لكنهم يحضرون للأكل.

كان هناك في الفافيلا أشخاص يعرفون أنهم «يصلّون التسابيح». هم من كانوا يسيّرون الصلاة. كانوا ضروريين لأنه كانت

(1) يصادف العيد الوطني في البرازيل احتفاء باستقلال البلاد يوم 7 سبتمبر من سنة 1822. -المترجم-

هناك صلوات شهر مايو، وصلوات شهر أكتوبر -شهر السبحة-، تُساعية شهر نوفمبر، التحضير لقدوم الطفل المسيح، قدّيسو شهر يونيو ومناسبات أخرى. كانوا يطلبونهم ليصلّوا التسابيح، ويتلوا الصلوات من بيت إلى آخر. فالقديسون يزورون كل كوخ، حتى إن لم يرغب صاحبه في ذلك. وكان الجميع يرغب في زيارتهم. كيف يمكن رفض زيارة قديس من القديسين؟ ودائماً في اليوم الأخير من أيام الصلوات، يقدّم صاحب البيت وجبة خفيفة، يمكن أن تكون قهوة بسيطة مع كسرة خبز.

كان لكلّ منطقة من الفافيلا مصلّوها الرسميون الذين يصلّون التسابيح، قليل منهم من كان يعرف القراءة. كان معظمهم يحفظون الصلوات عن ظهر قلب وأحياناً كثيرة باللغة اللاتينية. وبما أن ماريا الصغرى كانت تقرأ جيداً والقديسون غالباً ما يزورن بيتهم، فقد أصبحت، رويداً رويداً، مصلّية رسمية. بدأت تصلّي في بيت أُسرتها ثم طلبوا منها أن تؤدّي صلاة التسابيح في البيوت المجاورة. كان الجميع معجباً بمنظر تلك الطفلة الهيفاء، النحيفة، ذات العينين المستقصيتين، والنظرة الجادّة والحزينة، وهي تجثو على ركبتيها وسط الكبار تتلو بشكلٍ جيد صلوات من الكتاب. في كثير من الأحيان، كانت ماريا الصغرى تقرأ باللاتينية ترانيم سيدتنا العذراء. كان الجميع يعرف تلك الترانيم فيردّون عليها بشكلٍ جماعي: «Ora pro nobis». تتأثر ماريا الصغرى، فتقرأ بصوت مرتفع وراسخ:

– Mater creatoris...

فيردّون عليها:

- Ora pro nobis.
- Mater salvatoris...
- Ora pro nobis.

لكن الصلاة التي كانت تعجبُ ماريا الصغرى أكثر من غيرها هي صلاة «**العذراء الملكة**». كانت ثمة مقاطع من تلك الصلاة ترى فيها كل ناسها، فتتعرّف إلى الصياح، والأحزان، والمعاناة في حكايات العم توتو، وحكايات ماريا الكبرى وفيما يرويه بونادي من قصص. إنها تعرف وتتعرّف إلى الشخصيات. تلك الصلاة يمكن أن تنطبق على حياتها وعلى حياة الجميع:

«إليك نصرخ نحن المنفيون أولاد حواء،

ونتنهّد نحوك نائحين وباكين في هذا الوادي من الدموع [...]».

وهناك ترى، بشكلٍ جماعي، كل من يعانون، كل المعذبين، كل شريط حياتها وحياة الآخرين. كانت ماريا الصغرى تعرف أن الفافيلا ليست هي الجنة، بل هي أقرب إلى الجحيم. لكنها، دون أن تعرف السبب، كانت تلتمس بكل جوارحها من العذراء ألّا يسمحوا بالقضاء على الفافيلا، وأن تتحسّن حياة الجميع هناك. كانت ماريا الصغرى تشعر بقلق كبير. حينئذ يرتعش صوتها، وتنتابها رغبة في البكاء.

تحرّك الجميع في الفافيلا. لا أحد يظل غير مبالٍ بها. يأتي الجيران من قريب أو من بعيد، ومن كل أطراف الفافيلا. كانت هناك فرقة خاصة بالكبار. كان العريف أرميندو شخصاً صارماً. تبدأ التدريبات بشكلٍ مبكّر بعض الشيء، وغالباً ما تجري أيام السبت والأحد. من لا يحضر التدريبات لا يمكنه أن يشارك يوم الحفلة. قليل هم من كانوا يتغيّبون، ومن يتطوعون للرقص كانوا يطلبون أن تكون مشاركتهم في الحفلة نشيطة وفعّالة.

كان العريف أرميندو يقطن في جهة محظوظة من الفافيلا. يقع بيته وسط أرضية واسعة. كانوا يشعلون النار، ويرقص أفراد الفرقة. يقف الحاضرون في السقيفة أو وراء الأسلاك الشائكة، التي تحفّ بيته. وكان البيت يقع تحت مستوى الزقاق، فيسمح ذلك لمن يسكنون في الأعلى أن يتابعوا الحفل بدورهم.

هو من كان يدفع نفقات الحفلة. وحول نار الساحة كان يقدّم للحاضرين شراب الذرة، والحلويات، والبسكويت، والبطاطا، والكينتاو[1]، كما يشتهون. لا يؤدّي أحد شيئاً. كان البعض يقولون إنه فقط يتكلف بتنظيم الحفلة وتوفير المكان، لكن من يموّلون كل شيء هم الأغنياء الذين يقطنون في الحيّ الراقي بجوار الفافيلا. يموّلون الحفلة حتى لا يزعجهم أهل الفافيلا. كانت هناك أحياء أخرى قرب

(1) شراب كحولي يصنع من قصب السكر ويقدم دافئاً مع السكر، والقرفة والزنجبيل. -المترجم-

الفافيلات، تتعرض منازلها دائماً للسرقة. يبدو أنه كان هناك اتفاق ضمني بين أهل الفافيلا وجيرانهم الأغنياء: مَوِّلُوا حفلاتنا في شهر يونيو، سَلِّمونا ما فضل من خيراتكم، اعطوا فرص عمل لنسائنا وبناتنا، وبالخصوص، اعطونا ماء، حين يقلّ هنا في الفافيلا. احترموا مساكننا، ولا تأتونا أبداً بخطّة لتهديم أكواخنا، لأننا نستطيع أن نقتحم منازلكم. هكذا، كانت تستمر الحياة هادئة، وتنسج هاتان المجموعتان، رغم اختلافهما، سياسة لحسن الجوار.

في فرقة العريف أرميندو كانت تلمع امرأتان وتتألقان دائماً: ماما جوانا وسيدينيا سيدوكا. كانت ماما جوانا جميلة وجدية على مدار السنة. أما سيدينيا سيدوكا، فترتدي دائماً فستاناً بريئاً أبيض يعجّ بالدَّانتيلا. ماما جوانا جميلة وجدية؛ سيدينيا سيدوكا جميلة ومبتسمة، جميلة ومتأنقة، جميلة وغاوية.

لم تفهم ماريا الصغرى قط لماذا كانت ماما جوانا، بكلّ جمالها، وبذلك الفستان الذي تمضي شهوراً وهي تصنعه بيديها، ويناسبها بشكلٍ رائع فتحظى بإطراء الجميع، حين تنظر إلى نفسها في المرآة، وترى انعكاس صورتها، لا تصدر عنها ولو ابتسامة واحدة توجّهها لذاتها.

لم تكن ماريا الصغرى تفهم جدية أمها، وغياب الضحك والابتسامة عن محياها.

ماما جوانا، ماما جوانا، ابتسمي قليلاً، يا ماما جوانا!

كان العم توتو على الدوام رجل الضحك المرتفع والابتسامات العريضة. تدوي قهقهاتُه في كل الأرجاء. يتحدر من أبوَين عبدَين. وصلَ سالماً إلى الضفة الأخرى للنهر، وترك في مياهه أحسن ما لديه. عاش بعد وفاة زوجته الأولى وزوجته الثانية، ووفاة أبنائه. كان في زواجه الثالث، راضياً على ما كُتب له أن يعيش في هذه الدنيا منذ أكثر من تسعين عاماً. وحتى وقت قريب، كان يضحك بمرح ويقهقه بحرية.

ثم أصبحت ضحكاته قليلة وقهقاته نادرة عندما بدأ يشيخ. كان شاباً وهو في الثمانين من عمره. كان يعجبه أن يردِّد: أنا لستُ لقمة سائغة في فم الموت، لكني أعيش حياة صعبة، هذا صحيح! من بين كل حكاياته، كانت تعجبه أكثر حكايةٌ واحدة يحكيها باستمرار، وهي حكاية اجتياز النهر. يبدأها دائماً بهذا الشكل:

«وصلت سالماً إلى الضفة الأخرى للنهر. كنتُ أفضّل الموت، لكني ما زلتُ هنا».

لكن، ذات يوم، صار الجميع يدرك أن العم توتو بدأ يشيخ. ليس لما غزا رأسه من شيب، لأن الشيب كان هناك منذ زمان. ليس لأنه كان يمشي مترنّحاً ولا لأن صوته صار شبه أجشّ. لم تكن تلك هي علامات شيخوخة العم توتو.

كان يشيخ لأنه كان يفقد الأمل. يشيخ لأنه فقدَ كل رغبة في البدء من جديد. يشيخ حين يقوم بجرد حياته فلا يرى لها مخرجاً غير الموت.

كانت ماريا الصغرى تعاين شيخوخة العم توتو فترغب في أن تنقل إليه شيئاً من الشباب. كانت تعلم أن الموت يحلُّ مشاكل من يموت ونادراً ما يحلُّ مشاكل من يبقى على قيد الحياة. كانت تعلم أن العم توتو يريد أن يموت لأنه يشعر أن الحياة نصبت عليه مرة أخرى. كانت تفهم دوافع العم توتو، لكنها تسأله:

- ونحن، وأنا؟

فيؤكّد العم توتو:

- ماريا الصغرى، لماذا أصلح أنا؟ الفافيلا آيلة إلى الهدم، لماذا يجب أن أذهب معك؟ لماذا لا أتوقف هنا؟ جسدي يطالب بالتراب.

لم يكن العم توتو يدرك أن سنوات عمره التي تفوق التسعين كانت ضرورية لخمس عشرة سنة التي تشكّل عمر ماريا الصغرى.

- لقد تعبتُ، أيتها الصغيرة! منذ مدة وأنا أحاول أن أعيش، لقد عانيت الأمرّين. أتذكرين حكاية توينا السوداء؟ عندما تعرّفتُ إلى توينا السوداء، كنتُ لا أزال في حداد جسدي وروحي على موت ميكيلينا وكاتيتا. بقيت مدة طويلة دون أن أعرف امرأة أخرى. كنت أضحك، أقهقه عالياً لأطرد الألم وأسخر منه. كان من الصعب عليّ أن أقبل أنه، في لحظة، أخذت مني الحياة وانتزع مني النهر، دفعة واحدة، أحسن ما لديّ. صارعتُ. أبيتُ أن أصير إنساناً يائساً وأصبح مجنوناً لهذا السبب. كنتُ في حاجة إلى أن أرتّب أفكاري وأستمر في الحياة.

صمت للحظة ثم استأنف كلامه:

- اشتغلتُ هنا وهنالك، واستطعت أن أراكم مجموعة من كتب التقويم. قرأتها كاملة، وكانت هي الفترة التي قرأت فيها كثيراً. كنتُ أشعر بألم في رأسي وفي عينيّ من كثرة ما أقرأ. عندما انتهيتُ من قراءتها كاملة، كنت قد تعلمتُ شيئاً ما. لم أعد في حاجة إلى جمع الحروف مع بعضها، كانت هناك كلمات أقرأها من أول نظرة... ذات يوم قرأتُ بصوت مرتفع مع نفسي، فشعرت أنني لم أعد أتلعثم. بعد ذلك، أخذتُ أدوّن كل ما يعجبني في دفتر، انظري. انظري إلى هذه الكلمات التي وضعتُ تحتها سطراً:

الأحلام تصلح لوجبة الغداء، لكنها لا تصلح أبداً لوجبة العشاء.

عرض أمامها الدفتر، واستأنف حكايته:

- بقيت أخرس أمام تلك الجملة. في البداية، ظننتُ أنني كنت أحلم (حلماً جميلاً، من تلك الأحلام اللذيذة التي تحلمها الخالة ماريا الكبرى) ورحت أفكر، وأفكر... أحياناً أفهم، وأحياناً لا أفهم. سألتُ زي نورونيا، صديقي البنّاء القديم الذي كان يشيّد سوراً بجانبي. قال إنه سيحمل الجملة إلى المدرسة، لأنه يشتغل في البناء نهاراً ويدرس ليلاً. إن كان قد فعل، فإنه لم يأتني بأي جواب قط. ذات يوم، وجدتُ كتب التقويم وسط مجموعة من أغراضي الخاصة. قرأت مرة أخرى. تحسّنت قراءتي. رأيتُ أيضاً أن ذلك كان مكتوباً على صفحة واحدة ولا يضمّ سوى بعض الأقوال والأبيات الشعرية. إذاً، لا يمكن أن يكون حلماً لذيذاً لآكله. ومع ذلك، لم أفلح في فهم المعنى الخفي لتلك الجملة. في تلك الفترة، ضاع مني كتاب

التقويم. لا أحتفظ اليوم سوى بالدفتر وأفهم الآن معنى تلك الجملة. اليوم أعرف أن تلك الجملة تتحدث عن الحلم. الحلمُ هو الرغبة القوية في أن يحدث ما هو أفضل. الحلمُ هو أن نرفض ما نراه ونبتكر للعيون ما لا نراه. راودتني أحلام منها ما كنت قادراً على تحقيقه ومنها ما لم أكن قادراً على إدراكه. كان لدي من الأحلام ما يكفي لحياتي بكاملها. اليوم، اكتشفتُ معنى تلك الجملة. الحلم لا يزوّد المرء إلّا بما يكفيه حتى موعد الغداء، لأنه حين يأتي العشاء، يكون جائعاً لرؤية حلمه يتحقق. لطالما حلمتُ في صباحات حياتي، في وجبات غداء حياتي، واليوم، بعد أن حلّ العشاء، لم يعد لدي سوى الجوع، واليأس...

عندما تعرّف العم توتو إلى تووينا السوداء، كانت لا تزال في صدره تلك الحجرة الحادة التي تصيبه بألم عميق. كان قد نسي كل ما يمكن أن تمنحه امرأة ما من المتع. كان تائهاً يشتغل متنقلاً من مزرعة إلى أخرى، ويوفّر كل ما استطاع من مال.

ورغم الألم، قرّر أنه لن يصير مجنوناً أو معتوهاً. سيحاول أن يراوغ المعاناة. ورغم الحداد، تقرّب من تووينا السوداء، تلك الفتاة الجميلة التي كانت تشتغل في مطبخ المزرعة، بينما كان هو يكدّ في

حقول القطن. كان قد مرّ عامان أو أكثر بقليل منذ شربَ النهر أحسن ما كان لديه.

تشجّع توتو وتشبّث بالحلم بحياة أفضل فبعث رسالة إلى مطبخ المزرعة. كان يريد أن يتحدث إلى توينا السوداء. يريد أن يدعو الفتاة لترحل معه. قبلت توينا السوداء دعوته وكاد أن يغمى عليها من الفرح. لطالما ظلت تراقب ذلك الشاب وسط حقول القطن. وهو بدوره، كان يجدها جميلة. وإن كان يطلب منها أن ترحل معه، فلأنه يحبها، ويريد أن يتزوجها. ستكون زوجته. وسيكون لها زوجاً.

جرت العادة هناك أنه، إذا ما تقرّب رجل من امرأة وطلب منها أن ترحل معه، فإن المرأة تكون واثقة من أمر معيّن: أن أول الخطوات التي يخطوانها معاً نحو أول مكان يقصدانه هو كنيسة المزرعة. بعد ذلك فقط، يسلكان طرقاً أخرى.

مسحت توينا السوداء يديها بالمريلة، ثم مسحت العرق عن وجهها وجرت لتخبر أصدقاءها في المطبخ ثم أسيادها. كان عليها أن تخبر الأسياد، أولاً. كانت توينا السوداء وحيدة، من دون عائلة. تعتبر السود الآخرين في البيت عائلتها. ولدت في المزرعة وترعرعت ملتصقة بتنورات الطبّاخات. وذات يوم، دون أن تطرح السؤال، أخبرتها إحداهنّ أن أمها ماتت عند الوضع، أثناء ازديادها. لم تطرح عليها توينا مزيداً من الأسئلة. كانت سعيدة إلى حدّ ما. ما حاجتها إلى أم؟ وما حاجتها إلى أب؟ هكذا كبرت، تحدوها رغبة واحدة فقط: أن يكون لها بيت خاص بها، وزوج لها وحدها.

كانت تسمع السوداوات الأكبر منها يتحدثن عن أزواجهنّ فيشعل ذلك الرغبة في دواخلها. الأبناء، وخاصة الذكور، كانت تريد منهم الكثير، واحد، خمسة، عشرة، ثلاثة عشر ولداً. كانت تريد ثلاثة عشر من الأولاد.

حتى يوم الزواج، لم تشتغل توينا السوداء، لم تذق طعم النوم ولم يهدأ لها بال. صورة واحدة ظلت تسيطر على ذهنها، صورة الشاب توتو عارياً من الحزام فما فوق، جسمُه الأسود يسيل عرقاً ويسطع واضحاً بين زهور القطن البيضاء.

بعد بضعة أيام، وبينما كان الأب جواو يمرُّ بالقرية، ارتدى الاثنان ملابس يوم الأحد، وتلقيا مباركة الزواج. كانت توينا السوداء تريد شيئاً واحداً فقط: أخذت ثلاثة أزهار من أزهار القطن، ربطتها بقطعة من التبن، فكانت تلك هي الباقة التي حملتها في يديها. كان قلب الشاب توتو يخفق، وهو يبتسم مشرعاً نفسه للوعود الجديدة، والأحلام، والأوهام العذبة.

لم تكن توينا السوداء مخطئة. كانت كلما رأت الشاب توتو، بضحكاته وابتساماته السخية، تقول إنه سخي في أمور أخرى، وكذلك كان.

واستمرّت الحياة تجري مثل نهر هادئ. قرّرا أن يذهبا إلى العاصمة ثم سارا إليها مشياً على الأقدام.

منذ مدة

لـم يـروِ بونـدادي أي حكاية لـماريا الصغرى. كان العم توتو دائماً يحكي لها حكاية، وكذلك ماريا الكبرى. كانت الخالة تروي حكاياتها وحكايات أختها جوانا. لكن، مع تقدمها في السنّ، أصبحت ماريا الصغرى تحدس حكايات أمها، وتقرأها في عينيها وتعابير وجهها.

كانت السوداء الصغيرة تنتظر بلهفة حكاية من حكايات بوندادي. كانت تحدث أشياء كثيرة، وهي تفهم أشياء كثيرة، لكنها تفهم أحسن عن طريق الحكايات التي تسمعها. كان لا بدَّ لها أن تسمع الآخرين لتفهمهم.

في ذلك اليوم، عندما اجتاز بوندادي بخطواته الصغيرة عتبة الباب، بدأ قلب ماريا الصغرى يقفز من فمها. نظرت إليه بقلق وابتسمت. غمزها بوندادي بعينه. اجتاحت حرارة جسدها بكامله، فأيقنت أنها سوف تعرف، في تلك اللحظة، حكاية أليريو الأسود.

شاحت بنظرها عن عيني بوندادي، الذي ظلَّ هادئاً، بينما كان جسدها يحتدم بالكامل. وكانت نقطة خفية من جسدها تحترق أكثر من جهات أخرى. شعرت ماريا الصغرى بشيء من الخوف وكثير من الخجل. تذكّرت أليريو الأسود وهو يصل ليلاً، مبلّلاً حتى النخاع. ثم تذكرت شفتيه اللّحيمتين، وتعابير الخوف الغامضة على وجهه. فكرت أنها لا بدَّ أن تكون حكاية حب، وحياة وخطر...

ثم بدأ بوندادي يحكي.

عن هذا المكان. كان أسود صغيراً عادياً حتى تعلَّم القراءة. شحذت القراءة حسّ الملاحظة لديه. ثم انتقل من الملاحظة إلى الاستكشاف ومن الاستكشاف إلى التحليل، ومن التحليل إلى الفعل.

أصبح رجلاً عملياً، ونشيطاً جداً. لم يعد مجرّد ملاحِظ، يحب الأشياء والعالم. أصبح عاملاً، يساهم في بناء الحياة. منذ شبابه أدرك أن هناك الكثير ممّا ينبغي القيام به ولا يمكن أن يظلَّ مكتوف اليدين، ينتظر أجوبة من الآخرين ومن جهات أخرى. كان عليه أن يأخذ المبادرة، ويضع الإصبع على الجرح. لذا كان يجب، أولاً، أن يَخرُج الدمُ المتعفّن والضار من الجرح. بعد ذلك، شيئاً فشيئاً، نقطة نقطة، سوف ينضب الدم ويستطيع الجسد أن ينهض ويبحث عن سبيله.

لقد سال دم والدَيه العجوزَين، عندما عانقهما الرجل، ذات صباح، ثم رحل.

- باركني يا أبي، باركيني يا أمي، يجب أن أرحل. سوف أزوّدكما بأخباري. إنني أرحل مطمئناً، لأنني أعرف أنكما لستما لوحدكما. خلال مقامي بهذا المكان، غرستُ وقطفتُ لنا، وللآخرين. علَّمت القراءة للصغار وعشنا جميعاً حياة كالإخوان. أتذكر، يا أبي، كيف كان كل شيء من قبل؟ كان كل واحد يعيش بئيساً فوق قطعته الأرضية، يحتفظ بحكمته، ويراكم

جهله وفقره؛ يزداد ضعف كل واحد وهو يخشى الكولونيل[1] خوفيلينو.

الكولونيل خوفيلينو بصوته السلطوي...

كان الرجل يقول إن ثمة شيئاً ليس على ما يرام، وأنه ينبغي تغيير شيء ما! كان رجال الكولونيل يعطون الأوامر مقلّدين صوته، كما لو كانوا هم الأسياد! لكنهم كانوا رجالاً مثلنا قبل أن يصبحوا جلاوزة في خدمة الكولونيل، كانوا إخواننا. لكنهم، ما إن أصبحوا تحت حماية الكولونيل وأوامره حتى تجاهلونا. لماذا؟ لماذا يغيّر صوت السيد البارد صوت الرجل الخاضع؟ لماذا قد يتغير صوت زي ميليكا، الذي كان صوتَنا لوقت قريب؟ هل يستطيع زي ميليكا أن يستعمل سلاح السيد الذي يحمله في حزامه ضدّ أي واحد منا؟ هل يكون قادراً على ذلك؟

كانت ماريا الصغرى، أيضاً، تردِّد مع نفسها هذا السؤال: «هل يستطيع زي ميليكا أن يستعمل سلاح السيد ضدّ إخوانه؟».

وهي ترسم

في مخيلتها الطلقات النارية التي تصدر عن سلاح كبير العمّال، تذكرت العم تاتاو. كان يروي حكايات عن الحرب. ذات يوم، حكى

(1) لقب شرفي يطلق على كبار ملاك الأراضي والشخصيات البارزة في المناطق الداخلية من البرازيل، ولا علاقة له بالرتب العسكرية. -المترجم-

لها شيئاً ما عن الحرب التي شارك فيها. في نظره، ذلك لا يجعل منه بطلاً. وقتها، كانوا يستدعون الكثير من الجنود ولذلك تمَّ قبوله، رغم قامته القصيرة وجهله بمبادئ القراءة والكتابة. لكن، وقتها، كانوا يرحّبون بالجميع: السود، والهنود، والخلاسيين، والسود من ذوي الشعر الأحمر... لا يستثنون أحداً، لأن الوطن ملك للجميع!

وكان العم تاتاو يروي أيضاً حكاية حرب أخرى. حكاية تلك الحرب التي شارك فيها العديد من العبيد[1]. ذهبوا إلى الجبهة بعد أن تلقّوا وعوداً بالحرّية لدى عودتهم من الحرب. فحاربوا وهم يفكرون في الانعتاق من نير العبودية. لقي الكثير منهم حتفهم، أما من عادوا سالمين فأدركوا أن نيل الحرية يحتاج إلى شيء آخر غير تلك الحرب التي شاركوا فيها: الحرية تستوجب منهم صراعاً خاصاً، هو الصراع ضدّ العبودية.

سقط بيدرو دا زيكا

وسط بركة من الدماء. وقبل أن ينهار استطاع أن يصيح:

- أيها الوغد! أيها الأبيض الحقير! أيها الخنزير!

---

(1) المقصود هنا الحرب التي وقعت بين البرازيل والباراغواي (1864 - 1870). استدعت السلطات البرازيلية العبيد وجنّدتهم للمشاركة فيها ووعدتهم بالحرية والانعتاق من العبودية بعد نهاية الحرب. لكنها لم تفِ بهذا الوعد. -المترجم-

أخذ بيدرو دا زيكا سلاحه بمشية واثقة كمشية سيده. لكن من رأوه عن كثب ولاحظوا عينَيه، رأوا سحابة خوف، وربما غيمة ندم...

لم يكن زي ميليكا غبياً. كان يعرف أنهم يستعملونه، وأنه ليس هو السيد، وأنه جبان! لقد قتل رجلاً للتو -أخاً- بأمر من الكولونيل، بسبب خلاف يتعلّق بالأرض.

مع موت بيدرو دا زيكا، بدأ جرح الرجل يدمي، وسيدمي كثيراً. كان الرجل هناك ليجعل الجرح يدمي حتى ما تدعو له الضرورة.

دثّر الرفاق جسد بيدرو دا زيكا بقطعة ثوب أبيض وأشعلوا الشموع. وبينما ظلَّ بعضهم يحرس، بحث الآخرون عن القوة في أعماق ضعفهم، وقلقهم، وتمرّدهم، ثم ذهبوا لزيارة الكولونيل خوفيلينو. لم يكن ثمة شكّ: لقد قُتل بيدرو دا زيكا بأمر من الكولونيل! كان هناك خلاف قديم بينهما. فيما مضى، كان جَدّا الكولونيل يريدان أن يستوليا على أراضي جَدّي بيدرو دا زيكا. أراضٍ خصبة، وقريبة جداً من المزرعة! لكن تلك الشرذمة من السود رفضوا أن يبيعوا أراضيهم ورفضوا أن يخلوا المكان. كانوا آل زيكا أشخاصاً عنيدين. لا يبيعون، ولا يرحلون، رغم أن الحصار كان يطوّقهم أكثر فأكثر. كان دائماً يختفي فرد من أهل زيكا، فيجدونه، بعد بضعة أيام، يطفو فوق سطح النهر. ثم ينشر الكولونيل الخبر، ويتأسّف لحال عائلة زيكا ونزوع أفرادها إلى الانتحار، والارتماء في النهر. كان الجميع يعرف أن ذلك كان كذباً.

قبل عشر سنوات، ذات ليلة، وبينما كان الرجل، وهو أسود صغير وقتئذ، يستحمُّ في النهر، رأى أشخاصاً يلقون بجسد في الماء.

فتعرّف إلى رجال الكولونيل وجلاوزته. ستكون روحاً أخرى معذبة تئنُّ في ذلك المكان. لذا لم يكن أحد يأتي إلى ذلك المكان ليلاً؛ لا شجعان القرية، ولا آل زيكا، ولا العائلات. كانت مياه نهر الأموات تكتم سرّاً خاصاً بها، بالكولونيل وجلاوزته. لكن في تلك الليلة، أصبح السرُّ سرَّ الرجل أيضاً.

حين عاين ذلك المشهد، شعر الرجل الأسود، وهو لا يزال طفلاً، بالخطر. عاد إلى البيت، هادئاً، صامتاً، محترزاً من كل شيء. لم يغمض له جفن تلك الليلة. كان المطر يهطل غزيراً، والبرق يشق السماء. نظر إلى والديه اللذان بدآ يشيخان. وتساءل إن لم يكونا قد ضيعا حياتهما وسط كل هذا البؤس. ثم مزّق البرق عنان السماء. كانت الأفكار تتضارب في ذهنه. لا بدَّ للأمور أن تتغير، وهم لوحدهم سوف يحدثون التغيير، لأن الكولونيل، والأغنياء، لن يتغيّروا أبداً. لم ينم تلك الليلة، وظلّ يفكر طوال الوقت في أمرَين: أولاً، في ما رآه -رجل يلقي به جلاوزة الكولونيل في النهر-. ثانياً، حكاية رواها له والداه ذات يوم.

كان والد جدّه يعاني من جرح في ساقه. نخر الجرح لحمه، وبدأ يصل إلى العظم. لم يكن ذلك سوى معاناة أخرى في حياته. كان عجوزاً، غير قادر على العمل، مثل ثقل ميت. يظل جالساً، والجرح المتعفّن معروض على الذباب، وهو يعاني. كلما مرّ السيد الصغير أمام الأسود، وجّه ضربة إلى ساقه. فيكتفي الأسود بالأنين: آي، آي، آي... يا سيدي الصغير!

بعد عدة سنوات، ظهر جرح في ساق السيد الصغير. في الساق نفسها، والمكان نفسه. لم ينفع مع الجرح علاج ولا دواء. ولم ينفع معه الأطباء، ولا الأعشاب، ولا صلوات كبار السود. كان الجرح يدمي، يتعفّن وينخر ساق السيد الصغير. كان السود يؤكّدون، مبتهجين، إنه عقاب إلهي. كانوا سعداء لأن لهم ربّاً ينتقم لهم، ويوماً ما سيعطيهم مملكة السماء.

ليلة رأى الرجلُ، وهو لا يزال طفلاً أسود وقتها، رجالَ الكولونيل خوفيلينو يلقون برجل في النهر، فكّر: «ليغفر لي الله إن كان هذا خطيئة، أو تجديفاً، بيد أن إخواني بحاجة ملحّة، ودائمة، إلى ربّ يقف إلى جانبهم. عاجلاً وليس آجلاً، إنهم في حاجة إلى أرض، وخبز، وعمل، وطمأنينة. إنهم في حاجة إلى أن يعيشوا فوق الأرض، وليس في مملكة السماء بعد موتهم». فازداد إيمانه بضرورة وضع الإصبع على الجرح. ليس على جرح شعبه، بل على جرح أعداء شعبه. وقرّر أن يقوم، في اليوم الموالي، حتى لو كلّفه ذلك حياته، بنشر كل ما رآه في الليلة السابقة. لقد رأى جلاوزة الكولونيل خوفيلينو يلقون برجل في النهر.

«المساكين، إنهم في حاجة إلى أن يؤمنوا أن لديهم ربّاً يقف إلى جانبهم». هذا ما فكر فيه الرجل وهو يراهم يلقون برجل ميت في النهر. ليلتها هجره النوم وهو يفكر فيما حدث ويستعيد حكاية جدّ والده الذي لم يتعرّف إليه. الساق الجريحة، وما تعرضت له حياة العجوز من اعتداء... خطرت عليه تلك الأفكار عشر سنوات بعد ذلك، بينما كان يمشي رفقة الآخرين، بخطى حثيثة،

غاضباً، نحو بيت الكولونيل خوفيلينو. كان يوم أحد، وكل من كانوا متوجّهين إلى الكنيسة رأوا جسد بيدرو دا زيكا ملقى على الأرض. بعضهم ظلّ مشلولاً، جامداً، يخشى الموت أو يخشى من أعطى الأوامر بالموت. التحق آخرون بمن كانوا يسيرون. كان الرجل يمشي في المقدمة. وكانت تلك أول مرة يلتقي فيها بعدوه المحسن إليه.

مرّت عشر سنوات منذ عثروا على العجوز زيكا ملقاة في نهر الأموات. كان الجميع يعلم أن الضغط ما زال مستمرّاً، لكن لم «ينتحر» أحد بعد ذلك. واليوم قُتل بيدرو زيكا تحت أنظار الكثير منهم، من بينهم زي ميليكا، رئيس عمّال الكولونيل خوفيلينو.

اليوم سوف يحرّك السكين في جرح من يقفون في الجهة الأخرى. لأن جرح أهله كان يدمي منذ وقت طويل. اليوم يمتزج بالأمس، والغد سوف يكون مختلفاً.

استيقظ الرجل، ذلك الطفل الأسود وقتئذ -أو بالأحرى رأى القرية تستيقظ-، وهو عازم على أن يكشف عمّا رآه بالأمس. رأى والديه يرتديان ملابس يوم الأحد -أقلّ أسمالهم رثاثة- ليستمعا إلى قسّ القرية المجاورة الذي كان يأتي ليقيم القداس. حكا لهما ما جرى. لمح شرارة رعب في عينَي والده. ضربه هذا الأخير لأنه كان عند جانب النهر بعد حلول الظلام وهدّده بضرب آخر إن هو حكى لأي شخص آخر ما رآه.

ذهب والداه إلى كنيسة المزرعة، البعيدة بضع كيلومترات من هناك. أثناء ذلك، تجوّل الطفل في أزقة القرية. كان الخبر قد انتشر

كالنار في الهشيم. مرة أخرى يلقي فرد من آل زيكا بنفسه في نهر الأموات! يا له من هوس غريب هذا الذي يسيطر على آل زيكا! كم فرداً من أفراد آل زيكا وجدوه يطفو فوق مياه النهر، بعد أن اختفى قبل بضعة أيام؟ إنه يعرف منهم أربعة أو خمسة، على الأقل، وقد بدأت تلك الحوادث قبل ميلاده بكثير. كان الطفل الأسود يعرف أن تلك الوفيات كانت كاذبة. بحلق منقبض، وطعم الموت في فمه، وجسد يئنّ من ضرب الأب، هرع إلى بيت آل زيكا ليحكي لهم كل شيء. وأمام اندهاشه، هدّده آل زيكا بدورهم بضربه وتقديم شكوى إلى والديه. كانوا يكرهون الكولونيل، ولن يسلموه ولن يبيعوا له أرضهم، لكنهم لا يستطيعون فعل أي شيء. يوماً ما، سوف يصلح الله هذا العار. «إنهم في حاجة إلى أن يؤمنوا بأن الله إلى جانبهم...»، فكّر الطفل الأسود. كان فرد واحد من آل زيكا -امرأة عجوز- يبكي ويصيح:

- المجرمون! غداً سأذهب لأرى الكولونيل خوفيلينو! لا يهمني! وليغرقوني أنا أيضاً في النهر!

بعد بضعة أيام، وقعت حادثتان عمّقتا جرح الرجل: وجدوا تلك العجوز ملقاة في نهر الأموات. وجاءت أستاذة، بأمر من الكولونيل، إلى بيته لتعلّمه القراءة. كانت هي المربية التي تعتني بأبناء الكولونيل. كان الكولونيل يعلم أن أكثر ما يرغب فيه الطفل الأسود -كان عمرها وقتها حوالي أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً- هو أن يتعلّم القراءة.

ومع الأستاذة جاءت الأقلام، والدفاتر، وحروف الأبجدية. كما بعث له الكولونيل برسالة: أن يمرَّ لزيارته في المزرعة، متى شاء... ثم وصلت رسائل أخرى: عرض عمل... واقتراح ليتابع دراسته في العاصمة، مثل أبناء الكولونيل. لم يبعث الطفل قط ولو عبارة شكر واحدة. لكنه استفاد كما ينبغي من دروس المربية. وكبر.

كان الحقد يعمي عينَي الرجل، وهو يتذكر أحداث عشر سنوات من قبل وأحداث اليوم. كان هو الشاهد الوحيد على ما وقع سابقاً وأجبروه على السكوت. أما اليوم، فلم يعد طفلاً أسود أعزل. لقد صار رجلاً، وبصفته كذلك، لا يمكن أن يظلَّ صامتاً أمام الظلم. منذ وقت طويل، كان يعرف كل شيء وينتظر هذه اللحظة المناسبة.

إن عدوّه بالذات هو من جعله أكثر ذكاء، لأنه علّمه القراءة. ثم إنه تعلّم أكثر ممّا علّموه. كان يعرف قراءة ما كُتب وما لم يُكتب. كان يعرف قراءة كل حفنة تراب، كل ساق من قصب السكّر، كل سنبلة من سنابل الذرة. بل أكثر: كان يعرف قراءة وجوه إخوانه. وكان يعرف أن معادلة الحياة سوف تنقلب قريباً جداً.

كانت ماريا الصغرى تصغي لحكاية بونديادي فلا تستطيع أن تكظم تأثرها. انتبه بونديادي للأمر فتوقف لحظة. سكت وعقدةٌ في حلقه، لأنه يعيش بقوة كل حكاية يرويها، وماريا الصغرى تعيش بقوة كل حكاية تسمعها.

وأدمى صدرُ كل واحد منهما. كان بونادي يشعر بالندم لأنه روى لماريا الصغرى حكاية بكل ذلك الحزن. لكن الطفلة كانت تهوى تحريك السكين في الجرح. ليس جرح الآخرين، بل جرح قلبها. الجرح الذي ورثته عن ماما جوانا، عن ماريا الكبرى، عن العم توتو، عن لويس سيرا المجنون، عن الجدة اللطيفة المشلولة من جانبها، عن والد الجد الذي ظلّ عاجزاً أمام أسياده وهم يبيعون أيّابا، ملكة قلبه. كان البانزو يسيطر على فؤاد ماريا الصغرى، حنين إلى مكان وإلى زمان، إلى حياة لم تعرفها قط.

لكن أكثر ما كان يؤلم ماريا الصغرى هو أنها كانت ترى كل شيء يتكرّر، بشكلٍ مختلف بعض الشيء، لكن البؤس ظلّ دائماً هو البؤس نفسه. شعبُها، المضطهدون، والبؤساء: في كل الحكايات، ليسوا هم المنتصرون بل دائماً هم المنهزمون، أو تقريباً. كان جرح ذويها يحرق دائماً، يؤلم، ويدمي كثيراً.

لكن السوداء الصغيرة، رغم كل هذا الألم، ظلّت مصرّة على أن تستمع إلى هذه الحكاية. بعض نقط التقاطع بينها وبين الرجل كانت تفرحها. كلاهما، في الصغر، كانا يرغبان في تعلّم القراءة. في صغرها، كانت ماريا الصغرى تقضي ساعات وساعات تقرأ المجلات، والجرائد، التي كانت تجلبها لها أمها وخالتُها. وكان العم تاتاو، يحمل معه، من حين إلى آخر، هدية، كتاباً.

كانت ماريا الكبرى وماما جوانا تعرفان القراءة. تعلّمت ماريا الكبرى مع بعض المبشّرين الذي كانوا يأتون إلى قرية مسقط رأسها من حين إلى آخر. تعلّمت ماما جوانا القراءة لوحدها، تلاحظ الحروف بدقّة،

خلال ساعات وقت فراغها في البيوت التي كانت تشتغل فيها. وهذا ربما هو ما يفسّر رغبتها الكبيرة وما بذلته من مجهود كي يتعلّم أبناؤها القراءة. أحياناً، كان الجوع رفيقهم إلى المدرسة، لأنهم يصرفون نقودهم المعدودة في اقتناء دفتر، قلم أو ممحاة. كان الأطفال يمشون بسرعة وينتظرون بفارغ الصبر توزيع وجبة الأكل الخفيفة أثناء فترة الاستراحة.

كانت ماريا الصغرى تتعلَّمُ وتُعلِّمُ ما تعلَّمتهُ إخوانها الصغار من أطفال الجيران.

كانت ماريا الصغرى تكبُر، تقرأ، وتكبُر.

كان الكولونيل خوفيلينو يذرع سقيفة منزله جيئة وذهاباً. يعرف أن الوضع بدأ ينفلت من بين يديه. يا له من خطأ فظيع ذلك الذي ارتكبه زي ميليكا! قتل واحداً من آل زيكا في واضحة النهار، وأمام الملأ!

كبر الطفل الأسود الصغير، لكنه ظلّ حجراً صغيراً في حذاء الكولونيل خوفيلينو، يزعجه منذ عاين قتل واحد من أهل زيكا، الذي أغرقه رجاله في النهر. لقد أخرسَ المرأة العجوز، لكن الطفل ما زال هناك. لم يجرؤ على مسّه بسوء، فأمر أن يعلموه القراءة. كان يريد أن يستدرجه إلى جانبه، ويحوله إلى واحد من أهله، لكنه لم ينجح في مسعاه. واليوم، بعد أن صار الطفل الأسود رجلاً، بدأ يزوره، رفقة مجموعة من الناس. آه، لقد رعى الحية بين أحضانه!

كان الكولونيل يراه من وقت إلى آخر، ومن بعيد. يريد أن يقترب منه، لكن الطفل الأسود صار نوعاً ما زعيماً في القرية. ليلاً، كان يُعلّم الأطفال القراءة في بيته. وعلى ما يبدو، كانت من بين الأطفال طفلة أيضاً. يذهب من حين إلى آخر إلى المدينة، ويعود منها بالكتب والأخبار. يبدو أنه كان يقرأ ويدرس مع الآخرين جريدة تشرح بالتفصيل ما معنى النقابة، والإضراب، والعصبة القروية، والإصلاح الزراعي. مواضيع تروق لكلّ هؤلاء المتسكعين وتحرم الناس الطيبين من النوم! هذا ما كان ينقصه! لقد كان يتخبّط في عدة مشاكل من قبل، ثم جاء هذه الطفل الأسود وبدأ، منذ نعومة أظافره، يظن أنه أحسن من الآخرين!

صحيح أنه أمر بقتل بيدرو دا زيكا، لكن ليس هنا! انتهى ذلك الزمن الجميل حين كانوا يموتون غرقاً!

كان لا بدَّ من التأهّب للدفاع عن النفس، وبسرعة، لأن الرجل كان مقبلاً، يضع رجليه الحافيتين والمغبّرتين على أرضية الشرفة المصقولة بلون أحمر كالدم.

نظر الرجل عميقاً في عينَي الكولونيل خوفيلينو ولمح شرارة خوف. أشاح بنظره، ابتلع ريقه ولاحظ ألواناً حمراء على جدران الشرفة. نظر إلى الأرضية الحمراء فشعر بمذاق الدم يصعد إلى فمه. تحركت يداه بحركة طفيفة

تكاد لا تُدرك كما لو أنه يخنق الكولونيل. نظر مرة أخرى عميقاً في عيني الكولونيل فقرأ الخوف. نظر إلى إخوانه بجانبه، ثم نظر إلى من بقوا هناك في الخارج، فقرأ الحقد. حركة واحدة منه ويستطيع أن يرسل الكولونيل ومن معه إلى الجحيم. سوف يقتحمون البيت ويسترجعون كل الثروة التي كانت في ملكهم، لأن كل ما يوجد هنا يأتي ممّا يتعرّض له واحد منهم من استغلال. نظر إلى بيت الكولونيل فقرأ الغنى، والثروة، والتبذير، وكيف يملك قليل من الناس الكثير، وكيف لا يملك الكثير منهم شيئاً.

ثم تقدّم الرجل خطوة، فتقدم رفاقه أيضاً. كان الكولونيل يتصبّب عرقاً.

كان كل شيء يضطّرمُ؛ الشمس، والسماء، والأرض والرجال.

فكّر الرجل بسرعة: «نقتل الكولونيل، ننهب بيته، ثم ماذا بعد؟ هناك كولونيلات آخرون!».

أخذ نَفَساً عميقاً ثم قال بصوت قوي:

- حذار، كولونيل! إن ما نتعرض له من جوع، وبؤس، وظلم، لا يزيدنا سوى قوة كي نجعل معادلة الحياة تنقلب في يوم من الأيام... ما الذي يمكن أن تقولوه بخصوص موت بيدرو دا زيكا، كولونيل؟ لم يسعفكم الوقت لتغرقوه هذه المرة، أليس كذلك؟

وبدوره، أخذ الكولونيل نَفَساً عميقاً، ثم قال:

- ليس لدي ما أقوله، تلك مسألة بين بيدرو دا زيكا وزي ميليكا!

ثم نادى غاضباً على رئيس عمّاله.

- زي ميليكا! صاح، وهو يضع في صوته كل ما يشعر به من حقد تجاه هؤلاء الرجال.

جاء زي ميليكا بخطى متثاقلة، ووجه وجِل.

- أخبِرهُم، يا زي ميليكا! هل قتلت بيدرو دا زيكا بأمر مني؟ نعم أم لا؟ أخبرهم بما جرى! إنهم لا يعرفون ما جرى! إنهم لا يعرفون أن بيدرو دا زيكا كان يغوي زوجتك...

رفع زي ميليكا رأسه ووجَّه إلى الكولونيل نظرة شاردة. قرأ الرجل في عيني الكولونيل، وفي وجهه وهيئته، عادات من يصدرون الأوامر. ثم قرأ في زي ميليكا عادات من يطيعون بشكلٍ أعمى، ومن يخافون. دون أن ينظر الجِلوازُ إلى رجاله -لأنه كان يعرف أنهم رجاله- طأطأ رأسه وكأن كل جسده ارتخى. ثم ردَّ مهمهماً:

- نعم، كان يغوي زوجتي.

فنَقَل الرجال كل حقدهم تجاه الكولونيل إلى زي ميليكا، لأنهم يعرفون أنه يكذب. فمن كان أكثرهما قذارة، هو أم الكولونيل؟

كان الرجل هو الوحيد الذي أدرك، رأى، وقرأ في موقف زي ميليكا الدرس التالي: إن لم تأخذ حذرك، فإن من في الجهة الأخرى يمكن أن يجرّدوك من كرامتك.

ومنذئذ، لم تعد الأمور قط كما كانت من قبل في القرية. صوتُ الرصاصة الحادّ، سقوط جسد بيدرو دا زيكا على الأرض، المسيرة نحو بيت الكولونيل، جبن زي ميليكا، خوفه، خيانته وكذبه، كل هذا هوى عميقاً في قلوب الجميع. فشعرَ الأطفال، والنساء،

والرجال، جميعاً -كل حسب طريقته، وقدراته، وفهمه للحياة- أنه إن بقي كل واحد منهم منزوياً في ركنه لن يكون أي أحد.

هكذا بدأت تتحقق فكرة التعاونية، التي كان الرجل يناقشها منذ مدة مع إخوانه. كان كل واحد يهتم بحياته لكنه يهتم أيضاً بحياة الآخرين. إذا كان المرضى، والعجزة، ومن لا يستطيعون ممارسة الزراعة، يملكون قطعة أرض، فإنهم يسلّمونها لمن لا أرض لهم. كان الشباب يزرعون الأغذية لأنفسهم ولمن لا قوة لهم على فلاحة الأرض. تُباع المحاصيل أو تتم مقايضتها بين المزارعين، وما فاض عليهم يبيعونه إلى الخارج. كانت النساء اللواتي تربين أطفالاً تتناوبن على العناية بهم، وهكذا يستطعن الاشتغال في الحقول دون التضحية بصغارهنّ. وكان الأطفال الكبار يعتنون بالصغار، ويعلمونهم ما يعرفونه من حروف. كان الرجل يعرف أنه ما زال يلزم المزيد من العمل. ويعلم أيضاً أن الكولونيل غاضب: أدرك بعض العمال أنهم لو اعتنوا بقطعة أرض صغيرة يمكنهم أن يستغنوا عن ربّ عملهم. بل أدرك البعض منهم أنه يمكنهم أن يبيعوا محاصيلهم مباشرة في المدينة، بأنفسهم. طبعاً، كان عليهم أن يمشوا، ويتعبوا، لكنهم يستطيعون الحصول على قسط قليل من الأرباح، بينما حين يحرثون ويغرسون لحساب الكولونيل، لا يحصلون على أي شيء تقريباً، وينفقون كل ما لديهم في بقالة المزرعة. وفضلاً عن الأرباح، يستطيعون، سنة بعد أخرى، أن يغيروا وجهة حياتهم ومسارها. كانوا يتحرّرون من نطاق الكولونيل.

وبقلب أكثر ارتياحاً قرّر الرجل أن يرحل. ثم ودّع أهله. كان يريد أن يكتشف العالم، يعيش ويقرأ حيوات أخرى. كان يريد أن يبحث وسط آخرين، بين عُمّال المدينة، عن طريقة عيش أخوية.

كنا نعرف متى

تكون الجدة ريتا قادمة. كانت تقدم وهي تدندن، تتحدث مع نفسها، أحياناً، بل تبتسم لوحدها وتقهقه. لم تكن الجدة ريتا مجنونة، كلا! كانت طيبة، طيبة جداً. اليوم، عندما أفكر في الجدة ريتا فكأنما أفكر في سرّ الحياة وعظمتها.

سمعت ماريا الصغرى

من بعيد قهقهات الجدة ريتا. أرادت أن تجري وتضمّها بين ذراعيها، لكنها تذكرت الأخرى. كانت الجدة ريتا تنام منكمشة معها. توقفت، وقلبها يخفق بسرعة. ثم اقترب صوتُ الجدة ريتا، وضجيجها، وموسيقاها. أحست ماريا الصغرى بألم حادّ وفرح شديد. ثم عادت إلى ذاكرتها كل الحكايات: حكايات ماريا الكبرى، حكايات العم

توتو، حكايات العم تاتاو عن الحرب، حكايات بونادي، الحكايات الصامتة التي تعلمت كيف تقرؤها في عينَي ماما جوانا الحزينتَين، والحكايات التي كانت تراها يومياً في الفافيلا. فشعرت أنها يمكن أن تدخل جميعاً في قلب الجدة ريتا وليس في قلبها هي. ولم يكن ذلك لأنها ما زالت طفلة صغيرة! كلا. بل لأن قلب الجدة ريتا فيه من الرحابة ما يكفي لاحتواء العالم كله.

كانت الجدة ريتا تدندن لتخفي قلقها. في الآونة الأخيرة، كانت الأخرى خرساء والموت دائماً في عينيها. كان من الصعب رؤية عيني الأخرى، وحدها الجدة ريتا تستطيع ذلك. منذ اليوم الذي رأت فيه الأخرى الفزع، والقرف في عيني ابنها، بدأت فكرة الموت تجتاحها. فلماذا، ولأي غاية تستمر على قيد الحياة؟ ابنها هي! ثم انعزلت عن العالم بأسره. في السنوات السبع الأخيرة، انحبس عالمها في مشية متثاقلة بين الكوخ خلف البقعة والدكان الواقع أمامها. تذرع الزقاق المظلم، تمشي متثاقلة بين الكوخ ومجرى السيل. كانت تتوقف، تختفي، تنظر إلى الخارج. لا أحد يذكرها، ولو أن أحدهم، في لحظة غفلة، نظر إلى البوابة، فإنه يشيح بنظره خائفاً كما لو أنه رأى الموت بلحمه ودمه. وحدها الطفلة السوداء الصغيرة كانت تلحّ على النظر، وهي الوحيدة التي تمعن في البحث عنها.

لحسن الحظ أن الجدة ريتا هنا، ولحسن الحظ أن هناك صداقة الجدة ريتا وحبّها! كان بإمكانها أن تبتلع في أي لحظة تلك الكمية من السمّ التي تخبئها داخل الدولاب، وتعرف أنها لن تموت وحيدة. ستسند الجدة ريتا رأسها على ركبتيها وتضع شمعة بين يديها.

يديها... نظرت إلى نفسها وضحكت ساخرة. كم كان الأمس مختلفاً مع زوجها وابنها! لقد كانت سعيدة. بكت في دواخلها، ثم قررت، فجأة، ألّا تفكر في الماضي مرة أخرى. كانت قد نسيت كل شيء تقريباً. لقد رحل زوجها وكانت تشعر أن ابنها يمكن أن يرحل في أي لحظة. ذلك أفضل. كلّما رحل مبكّراً، كلّما كان ذلك أحسن بالنسبة إليه وإليها أيضاً. ربما ما زال بإمكانه أن ينجو. توجّهت بصعوبة نحو الدولاب، وأخذت السمّ. لا تستطيع أن تفعل ذلك، ولن تفعله لأجلها هي. إنها لن تفعل ذلك من أجل الجدة ريتا. الموتُ بتلك الطريقة خيانة في حقّ الجدة ريتا.

كانت الجرّافات

تحفر، وهي تهدم أقصى شمال الفافيلا. هناك، الغبار يغطي كل شيء ويعلو القلق. لقد توصلت بعض العائلات بإشعار الطرد، ممّا كان يزيد من ألمنا جميعاً. كانت كل عائلة تغادر بمثابة تأكيد لما ينتظرنا. البلدية تخيّر السكان بين حلَّين: مواد البناء -بعض الألواح الخشبية وشيء من الآجُرّ لبناء كوخ في مكان آخر- أو تعويضاً مالياً رمزياً. وكان هذا الاختيار الأخير هو الأسوأ. من يختارون المال يتلقون مبلغاً زهيداً سرعان ما ينفقونه. ثم سرعان ما يأتي الأسوأ، بعد انتهاء المهلة: لا مال، ولا ألواح خشبية، ولا آجُرّ. لا شيء.

كنا نعرف أن الفافيلا ليست هي الجنة، لكن لا أحد كان يريد أن يخرج منها. عملُنا، وكل ما نكسب، رزقنا كان قريباً من هناك. ماذا عسانا نفعل في تلك الأحياء البعيدة التي يرسلوننا إليها بالقوة؟ كانت بعض الأُسر تسكن هنا منذ سنوات عديدة، أكثر من نصف قرن. وماذا عن قانون الملكية المكتسبة؟

كانت هذه الأفكار تتضارب في ذهن ماريا الصغرى وهي تشاهد الجرّافات تتحرك جيئة وذهاباً. ضحكت وهي ترى سائقاً اصطبغ بالألون من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وقد غطّاه غبار أحمر. كان الأطفال ينظرون إلى العمّال وهم يشتغلون. وكلما اقترب منهم طفل جريء، تدنو أمه، حزينة، ثائرة، وتأتي لتوبّخه في عين المكان. كانت تلك الجرّافات تجلب معها كثيراً من الحزن، وتأتي بكثير من الأسى. وفي تلك الليلة، من جهة أخرى...

كان النهار يدنو من نهايته، والعمّال يحاولون نسيان التعب وهم يقفون قرب أولئك العاطلين الذين يعيشون حياة الفراغ. فمن كان أكثرهم حكمة، العاطلون أم العاملون؟ باستثناء الخطر الذي تمثّله الشرطة بالنسبة إلى المتسكّعين، كانت حياتهم هي الحياة نفسها، وحرمانهم هو الحرمان

نفسه. وهذا، على الأقل، دليل على أن لا أحد يغتني من العمل. ولا يغتني منه حتى لصوص الفافيلا.

كانت تُسمع أصداء الفرح، وتتعالى أصداء السامبا والموسيقى. لا بدَّ من الغناء! كان أهل الفافيلا يفتحون أفواههم عن كاملها، فتظهر لثاثهم المتعفّنة وأسنانهم المسوّسة، وتفوح منها أحياناً رائحة دافئة لماء الحياة. كانت هناك أيضاً ضحكات جميلة وابتسامات وسيمة، بيد أن جمالها لا يأتي من أسنان نظيفة، بيضاء، ومتراسة، بل من الأعماق، من البراءة، والاعتقاد الواهم بأنها سعيدة في تلك اللحظة.

كان سو لاديسلاو يقفُ وراء طاولة الشرب ويراقب المشهد. قد يظن غريب وزائر عابر أن ذلك يحدث لأول مرة نظراً إلى ما كان يُبديه الجميع من اهتمام. كانت الأهازيج، وصوت الدف، وآلة الكويكا، والطبل تخرج من الأحشاء. كان منظراً جميلاً وحزيناً. أو جميلاً بكلّ بساطة، وحزيناً في عينَي ماريا الصغرى، التي كان خيالها يتيه في أفكار بعيدة وقريبة.

فكرتان، وحقيقتان - صورتان مُنضّدتان - تجرحان صدرها. زقاق السِّينزالا[1] والفافيلا.

في تلك الفترة، كانت قد التحقت للتو بالإعدادية. قرأت وأدركت ما هو منزل السيد. وكانت تريد أن تحدّث أستاذتها في هذا الموضوع. كانت تريد أن تسوق كمثال على بيت السيد الحيّ الراقي بجوارهم، وكنموذج على السِّينزالا والفافيلا التي تسكنها.

---

(1) تطلق كلمة «سينزالا» في البرازيل، أثناء فترة العبودية، على البناية الخاصة بالعبيد ومرافق سكنهم بجوار بيت الأسياد. -المترجم-

وعندما همّت بالكلام، ألقت نظرة على القسم وعلى الأستاذة. بحثت عن دعم في المجموعة، فلم تجد غير تلميذة سوداء. نظرت إليها، لكن الأخرى كانت تتابع الدرس بأذن ساهية، كما لو أن موضوع العبودية لا يمتّ إليها بصلة. شعرت بالحرج. في قسم من خمسة وأربعين تلميذاً، كانت هناك فتاتان سوداوان، بعيدتان عن بعضهما كل البُعد! ثم أحجمت عن الكلام واحتفظت بأفكارها لنفسها.

فافيلا سينزالا، فافيلا سينزالا!

كان العمّال، ممن ينهضون باكراً في اليوم الموالي، يودّعون دقات الموسيقى الإيقاعية ويتوجّهون، محتفلين، ثملين من التعب، نحو أكواخهم. أما من لا التزام لهم سوى مع الحفل، وانعدام الشغل، فظلوا يغنون، ويرفعون عالياً أصداء دقات الموسيقى بنوع من الخلاعة، حتى وقت متأخّر من الليل. لا أحد يشتكي من ذلك. تنام الفافيلا على نغمات تهويدات من يعيشون حياة الفراغ وهمهماتهم. ومن هذا الفراغ، من هذا الغد الذي لا التزام فيه، خطرت على جواو، ابن إسميرالدا، الفكرة الطفولية التالية:

- هل نقوم بجولة فوق الجرّافة؟

- هل تعرف كيف تقود جرّافة؟

وهل لا بدَّ من معرفة سياقة الجرّافة!؟ ظلَّ يرقب الجرّافات طوال اليوم، وما ينبغي فعله هو أن تدفع شيئاً هنا، وتسحب شيئاً آخر هناك، فتتحرّك الآلة الفظيعة، الضخمة، بطيئة!

وهكذا تحرّكت جماعة الرجال - الأطفال - العاطلين. كانوا سعداء! سوف يمارسون لعبة السيارة فوق طريق حقيقية، متعة لم يعرفوها قط في طفولتهم. ضحكوا، وصرخوا وقفزوا وهم يتخذون لأنفسهم مكاناً فوق الجرّافات - اللُّعَب. امتطى جواو، ابن إسميرالدا، وزي، ابن بينيا، جرّافة؛ وامتطى نيكا باليتو وتونيا، ابن كويكا، جرّافة أخرى. كان القمر يضيء هؤلاء الرجال الصغار، الناضجين، ضحايا وجلادين، بوجوههم الطفولية الحلوة الغارقة في الحلم. كانت الجرافات تذعن لأوامرهم، وتستجيب حين يطلبون منها أن تتقدّم، وتتقدّم، وتتقدّم... كانوا ثملين من السعادة، دائخين بماء الحياة. يتقدّمون، ويتقدّمون، ويتقدّمون... كيف نرجع إلى الوراء؟... ولماذا نرجع إلى الوراء؟ ثم، فجأة، في لحظة قصيرة وعابرة كالفرح، ضجّةٌ ضخمة...

مكتبة
t.me/t_pdf

رغم تقدّمه في السنّ، كان العم توتو يتمتع بسمع مرهف. أيقظته الضجّة فجأة، فنادى على ماريا الكبرى. ثم سرعان ما استيقظت ماريا الصغرى بشعور مسبق لا يُبشّرُ بخير. كان العم توتو يرتعش ويتصبّب عرقاً. ما هذا؟ هل ألقوا بقنبلة على الفافيلا؟ لو كان كذلك، فهذا لا يهمّه! على الأقل، لن يظلّ جسده هنا.

كان العم توتو يعيش أقرب فأقرب من الموت، وفقد كل أمل. كان يستعيد ما عاشه من أحداث، حزينة، حزينة حقاً! وأخرى سارّة، من زمن الأمل. والأمل هو ما كان يصبو إليه. ظلَّ يبحث عنه هناك، في أعماق قلبه، فلم يسمع سوى دقات هذا العضو الخاطفة والحادّة. آه، أيها القلب العجوز! متى سينتهي كل هذا؟ الآن؟ هل كانوا يلقون قنبلة على الفافيلا؟ ذات يوم، سمع في الإذاعة أن قنبلة قد ألقيت في مكان ما، في الخارج (في البرازيل، لا تقع أشياء كهذه) فهُدمت المدينة عن آخرها. وأما الناجون فأصيبوا بالمرض، مرض خبيث يصيب الجسد والدم. هل كان يحدث الشيء نفسه في الفافيلا؟ لو تأكّد ذلك سيكون أمراً محزناً، ليس فقط بالنسبة إليه، ولكن بالنسبة إلى الأطفال، وبالنسبة إلى ماريا الصغرى التي تحمل بداخلها زخماً من الحياة.

ومن يدري إن كان كل شيء سيكون مختلفاً بالنسبة إلى ماريا الصغرى؟ بحث أكثر بعض الشيء في قلبه، ثم مدّ يده إلى صدره محاولاً أن يحدّد مكان الأَمَل، لكن القلب كان يخفق في الفراغ.

تذكر كيف وصل سالماً ووحيداً إلى الضفة الأخرى للنهر وكيف انتابه يومها الإحساس نفسه. ثم داهمته الذكريات الأليمة. خفق قلبه بسرعة، واختنق يأساً داخل صدره. كانت آلاماً كثيرة: هذا الألم، ذلك الألم الآخر، ووصوله إلى الفافيلا في النهاية.

شعر بحضور ماريا الصغرى في الغرفة المجاورة. شعر بالشفقة لحاله، لحال ماريا الصغرى ولحال الحياة، ثم بكى بكاء خفيفاً.

سمعت ماريا الكبرى

بدورها صدى ضجة الأصوات، فنهضت مفزوعة على نداء العم توتو الحزين. نظرت إلى العجوز فرأت الدموع منهمرة على خديه. شعرت برغبة في أن تعانقه، كما يعانقون الأطفال. عانقته فقط بعينيها وبقلبها.

«نعم، لقد كبر العم توتو، وقد شعر بالخوف! أنا أيضاً شعرت بشيء من الخوف. ماذا سيكون مصير الحياة؟ ليست حياته هو أو حياتي أنا! حياتنا معاً عشناها تقريباً. ماذا سيكون مصير ماريا الصغرى؟ وماذا ينتظر من سيأتون من بعد؟».

كانت السوداء الصغيرة

تكبر، هيفاء، نحيفة. تكبر بعنف في دواخلها. يكاد عظما كتفيها يخترقان فستانها الرثّ. كانت ماريا الصغرى تُصنع بالسيف والنار. لم تكن الحياة رحيمة بماريا الصغرى ولم تكن ماريا الصغرى رحيمة بالحياة. رغم سنّها الصغير، كانت تعيش الحياة بلا تحفُّظ. كانت عدة أشياء واضحة تماماً في ذهنها، وكانت عدة أشياء أخرى غير واضحة. لكنها كانت تعرف أن ذلك الألم لم يصبها لوحدها. يستحيل أن تحمل على كتفيها كل تلك السنوات والسنوات. كانت تعرف أن هناك حيوات تُعاش في صمت. تعرف أنه ينبغي إظهار كل شيء، لكن كيف؟

كانت الحياة تصنعُ ماريا الصغرى بالسيف والنار.

الموتُ، أحياناً، لا يعلن عن قدومه. يأتي من الخلف. يتمدّد الجسد جميلاً، سعيداً، ولكنه لا ينهض في اليوم الموالي، حبيس لا شيء. أحياناً، يرسل إشارة، فيمرض الشخص، ويعاني. أحياناً، يشارك في حفلة يوم البارحة. يغنّي الموت، يمزح ويحلم مع من اختاره أو وسط من وقع عليهم اختيارُه، ثم يغدر بهم ويخطفهم. نعم! وماذا عسى الأحياء أن يفعلوا؟ يبكون، يعيشون، يغنون، يعانون، يعيشون، يجدفون، يعيشون، يصلون، يعيشون، يعيشون، يعيشون، يعيشون...

لقد كانت المنيّة مفرطة في القبح، عاهرة بشكلٍ فادح، غدّارة، ووحشية!

كانت أجساد الرجال - الأطفال - العاطلين تتمدد مفككة على الأرض، تمتزج بالتراب، قرب الجرّافتين. جاء السكان، وحاولوا أن ينظروا إليها، فلم يروا شيئاً، لكنهم خمنوا ما حدث. كان من الصعب التعرّف إلى الأجساد، إلى الأموات. على أي، ما الفائدة من ذلك؟ كان الكل يعرف الكل. وصلت الشرطة متأخّرة، وجمعت الجثث، فلم يبقَ غير الفراغ. كان شيئاً مؤلماً جداً. ذنبٌ آخر تقترفه الحياةُ...

ومضى اليوم متثاقلاً. كان الجميع يدفعون الزمن ببطونهم. كنا نسعى إلى إرجاء نهاية الظهيرة، التي نخشاها. ثم جاء الليل وحلَّ الظلام، وحلَّ الظلام...

ما هو مآلنا؟ ما هو مآل المتسكعين، والعاملين، الكبار والصغار؟ ما مصير الليل من دون سامبا كان يعزفها الرجال الصغار بقلوب مرحة؟ ثم نزل الليل على رؤوسنا جميعاً، خالياً من كل ضجيج وفارغاً من كل حياة.

كان هناك البؤس والعظمة. الصديق والعدو، الوفي والخائن. كان هناك الكثير من الحب والحقد. كثير من الفقر في الغنى، وفي بؤس كل واحد. وكان هناك بؤس يفوق البؤس الشخصي، بؤس الأنانية، والحسد، والحقد، والرغبة في تصفية الأخ والشقيق.

كان هناك البؤس الإنساني الذي لم يكتشف بعد آدميته. الإنسان الذي لم يكتشف نفسه في ذاته وفي الآخر. كان هناك بؤس لا يستطيع حب أشخاص مثل الجدة ريتا، وبوندادي، والوافد الجديد، أليريو الأسود، أن يحلَّ إشكاله. كان هناك بؤس أولئك

الذين أوصدوا أبواب قلوبهم لكلّ فعل ينم عن الحب. كان فوينيا[1] من طينة هؤلاء.

كانت ماريا الصغرى تخاف كثيراً من فوينيا. كلما مرت أمام كوخه أسرعت الخطى. يقول البعض إنه مجنون، ويؤكد آخرون أنه يُجسّد الشرّ والانحراف، لكنه ليس مجنوناً. كان يتحدث، يمشي، يتكلم، ويعمل بشكلٍ عادي. يقصد بقالة سو لاديسلاو، يأخذ حمّاماً في غرفة من الغرف الصغيرة المخصّصة للرجال، يشرب بعض جرعات من ماء الحياة، يتحدث، بل يضحك قليلاً، ثم ينصرف. لكن فوينيا كان يعذّب زوجته وابنته، فوزينيا. كان الجيران يستيقظون في عزّ الليل على صياح المرأتين. كان فوينيا رجلاً شريراً. يُقال إنه كان يعرّيهما ويضربهما حتى تدميا. وإن انتحبتا في صمت، يضربهما حتى تصيحا، فإن صاحتا ضربهما حتى تصمتا من جديد.

هكذا، كبرت فوزينيا مرعوبة، ووحيدة. ذات يوم، توقفت ماريا الصغرى قرب السلك الشائك الذي يحيط ببقعة كوخهم، وكانت فوزينيا على وشك أن تبوح لها بشيء ما، وتهمس به. لكن ماريا الصغرى سمعت صوت الأب فهربت. وسرعان ما سمعت خبطة مكتومة على الأرض ثم صياح صديقتها. في تلك الليلة، تردّد صدى صرخات فوزينيا أكثر فأكثر حزناً.

---

(1) تعني كلمة «فوينيا»، أو «Fuinha» باللغة البرتغالية، حيوان الدلق أو النمس. وتطلق كناية على الشخص النحيف والبخيل أو على ذلك الذي يتمتع بالدهاء والحيلة. -المترجم-

كبرت فوزينيا وسط البكاء والضرب. كان وجهها مغضناً. وكانت أمها مستسلمة ومذعورة. لا يزورهما أحد ولا تزوران أحداً.

كان بونـدادي يزورهـما، يتحدث معهما قليلاً، لكنه لا يبقى هناك لينام. بيد أنه لا ينساهما أبداً. كان دائماً يذهب ليراهما في اليوم نفسه أو في الموالي لاختفائه الغامض من الفافيلا حين يعود إليها غنياً، يحمل ملء جيبَيه مؤونة وحلويات للأطفال. كان بونـدادي هو الوحيد الذي يزورهما.

كانت الجدة ريتا تزورهما من قبل، لكنها منذ أصبحت تعيش مع الأخرى لم تزر أحداً قط.

وذات يوم، لم تستيقظ أم فوزينيا. كان الجيران قد سمعوا ضرباً ليلة البارحة. صرخت المرأة، وصرخت، كما صرخت فوزينيا، وصرخت، صرخت. أما فوينيا، فقال:

- الصمت!

صمتت المرأة إلى الأبد. وظلت فوزينيا تصيح لوقت طويل.

كبرت رغم الآلام، وعاشت رغم موت أمها وعنف الجلاد والدها. كان هو السيد. سيد زوجته وسيد الحياة. تحكَّم في حياة زوجته حتى قتلها. ومنذئذ صار يتحكم في حياة ابنته. بيد أنه كان يريد ابنته متوهّجة، مشبعة بالحياة. كان هو السيد، الرجل الذكوري، والمرأة كانت لهذا الغرض بالضبط. وجدت المرأة ليُفرج بها الرجل عن نفسه، ليضربها، ويستمتع بها. هكذا كان يفكر.

كان فوينيا منحرفاً يلبّي حاجياته مع ابنته. حاول البعض أن يتحدثوا إليه، فكان يجيبهم بوقاحة إن ابنته ملك له، وهو يفعل بها ما

يشاء. يوم حاولت فويزينيا أن تقترب من ماريا الصغرى، ليلاً، علت صيحاتُها تشق عنان السماء.

كانت ماريا الصغرى تشعر بالرعب من فوينيا.

منذ مصرع

الرجال - الأطفال - العاطلين، لم يعد أحد يتحدث عن خطّة هدم الفافيلا. مرّت أربعة أشهر. ظلّت الجرّافات في أماكنها، وعجلاتها في الهواء. أمطرت كثيراً في الأيام الأخيرة، ثم عادت الشمس لتظهر من جديد. أصبح التراب متيبّساً، وبما أن البقعة كانت منحدراً، فقد أصبحت طريقاً لزقاً. ولأن الأطفال كانوا لا يملكون لُعباً، فقد كانوا دائماً يبدعون ويبتكرون. هكذا ابتكروا لعبة خطيرة - لكن هؤلاء الأطفال يعيشون دائماً مع الخطر - فأخذوا ألواحاً خشبية، يجلسون عليها ثم ينزلون عبر المنحدر. ومن لا يستدير في الوقت المناسب يصطدم بوجهه مع الجرّافة.

كان براندينو[1] يطير خفيفاً كالريشة. والجرافة جامدة، ضخمة. وجه الطفل وجسده، هشين.

---

(1) إن كلمة «براندينو» هي تصغير لكلمة «براندو»، أو «Brando» باللغة البرتغالية. وهي نعت يعني الغض، الطري، السلس واللطيف من بين معانٍ أخرى. -المترجم-

لم يكن موتاً آنياً، وسريعاً، كموت الرجال الصغار العاطلين. أخذوا براندينو إلى المستشفى، حيث ظلّ عدة أشهر، ثم عاد إلى بيته، صامتاً، أبله، قصياً، مشلولاً، حياً- ميتاً.

في الصباح، تضعه أمه في عربة خشبية، تأخذ مع الصغار الثلاثة ثم تذهب لتتسوّل.

كان أليريو الأسود

هو من جمع سكّان الفافيلا كي يذهبوا ليلتقوا بمقاولة البناء ويطالبوها بإزالة الجرّافات. كانت الجرافات المتوقفة خطراً مستمرّاً! وما حدث لبراندينو يمكن أن يحدث لأي طفل آخر. كان السكان قد ضاقوا ذرعاً بذلك الوضع. تلك الجرافات لا تحمل لهم سوى ذكريات مؤلمة، وتذكّرهم بفقدان الكثير من ذويهم: موت الرجال-الأطفال-العاطلين وما وقع لبراندينو.

إن لم تتم إزالة الجرّافات حالاً، فإن أهل الفافيلا سوف يفككونها ويبيعونها قطعاً في سوق الخردة. ويجنون من ذلك مالاً كثيراً!

وبعد أسبوعين، جاءت جرّافات أخرى. جاءت غاضبة، متأهّبة لتبدأ من جديد. جلبة قوية، وغبار كثيف. لقد استُأنف هدمُ الفافيلا.

من توصلوا بألواح خشبية وآجُرّ أو مبلغ من المال فعليهم أن يفرغوا المكان.

الأثـاث، والـحُـزم، والأطـفـال، والكبـار، والكـلاب، واليأس، والأوساخ، كل شيء كان متراكماً كما اتفق في حافلة تفضّلت مقاولة البناء وأعارتها للسكان. كان الجيران ينظرون إلى الآخرين يرحلون وهم يعلمون أن دورهم ليس بالبعيد. ثم تنطلق الشاحنة وسط غمامة من الغبار.

وأما فائدةُ كل هذا الغبار فإن المرء يمكن أن يبكي ويخفي دموعه.

كانت كوستوديا تغادر المكان منكسرة الروح والجسد. الشاحنة تتحرك، فيرتفع الغبار ويلتقي بالغبار الآخر، غبار الجرّافات. وجدت كوستوديا صعوبة في الصعود إلى الشاحنة. بطنها يؤلمها. وضعت يدها على بطنها. غمرها حنين إلى الطفل الذي كان هناك قبل أسبوع. ورغم ما تعرّضت له من عنف فقد كانت تخشى أن تقول أي شيء. دموعها منهمرة. كانت تريد أن تغطي وجهها بيديها، ففركت عينيها واتهمت الغبار.

نظرت إلى الأمام مباشرة فرأت حماتها، والكتاب المقدّس في يدها. ألم جديد في البطن. شعرت بالدم يسيل. «هل سيُغمى

عليّ الآن؟» فتحت عينَيها مشرعتَين فلم ترَ غير الغبار. «يا إلهي، لا يمكن أن يغمى عليّ الآن! ليس هناك سوى هي، وأنا والأطفال. لا أستطيع!». فتمسّكت بآخر ما بقي لديها من قوة. كان الدم يقطر ساخناً بين ساقيها. هل قامت بمجهود كبير وهي تصعد إلى الشاحنة؟ نظرت في كل الاتجاهات من حولها، تبحث عن تونيو. كان يودّع الناس في حانة من حانات الفافيلا. لم يقدم مساعدة كبيرة! لو لم تكن حماتها هناك، لقام بشيء ما. لكن، لماذا يترك تونيو لأمه كل هذه السلطة؟ عجوز منافقة، تحمل دائماً الكتاب المقدّس في يدها! لم تكن كوستوديا ترى غير الكتاب، بقعة سوداء أمامها.

جاء في الكتاب المقدّس: «**بِالوَجَعِ تَلِدِينَ**»[1]. بطنُها يؤلمها. كانت قد وضعت قبل أيام رضيعاً في شهره السابع. بالوجع تلدين. كان تونيو سكران في البيت، ولم يعد ذلك مشكلة منذ مدة. عرفته سكران وتزوجت به وهي على علم بالواقع، لأنه، رغم كل شيء، أحسن من الآخرين، يشتغل ولا يشرب سوى أيام السبت والأحد. يوم السبت، بعد مغادرة الورش، كان يمرّ إلى بقالة سو لاديسلاو، يؤدّي حساب الأسبوع المنصرم، ويفتح حساباً جديداً. ويقوم الصبي، ابنه، الذي يلعب الدحل في الشارع، بحمل بعض المؤونة إلى البيت. أما الباقي، فيستهلكه تونيو في الشرب. يشرب تعب الأسبوع المنصرم وتعب الأسبوع القادم. يشرب أجره البئيس. يشرب مشترياته، كيلوغرامات

---

(1) إشارة إلى الكتاب المقدّس: «وَقَالَ لِلمَرأةِ: تَكثِيراً أُكَثِّرُ أتعَابَ حَبَلِكِ. بِالوَجَعِ تَلِدِينَ أولاداً. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيكِ». (سفر التكوين 3: 16). -المترجم-

قليلة من رز رديء، وفاصولياء صلبة[1] ينبغي غمسُها في الماء، أما السُّكَّرُ، فيقتصده طوال الأسبوع. كان الأطفال يطالبون كوستوديا دائماً أن تُحضِّر لهم حلوى. لكن السكّر لم يكن كافياً، بالكاد يتوفر منه ما يكفي للقهوة وقارورة رضاعة الصغير...

كان الأطفال يملكون حسّ الابتكار في كل شيء. يبتكرون اللُّعب. يبتكرون الأحلام الجميلة جداً! يبتكرون أشكالاً من العُقبة والمثلجات. يغرسون قضيباً خشبياً في موز. انظر، إنه إسكيمو بالموز؟ كان تونيو يشرب أيضاً أحلام أطفاله. أحلام فقيرة كان عاجزاً عن تحقيقها. من حين إلى آخر، وبدل أن يشرب، كان يجلب بعض الحلويات والبسكويت إلى البيت. لكن حنجرته جافة، فيجد صعوبة في ابتلاع كل ما يكنّه من حقد للحياة. لكن تلك الأيام كانت من أسوأ ما عاشه. على الأقل، عندما يكون سكران، الأمور لا تكون بكل هذه القسوة.

وهي تمسّد بطنها، تذكرت كوستوديا ما حدث في الأسبوع الفارط. وصل تونيو سكران، يترنّح، يتمرّغ على الأرض، وهو يرغي ويزبد. فنادتها الحماة:

- كوستوديا! يا كوستوديا! تعالي وساعديني على حمل تونيو!

فجاءت ببطنها المنتفخ بسبعة أشهر ويبدو كأن حملها قد اكتمل، وأمسكت الرجل. كان الرجل يتخبّط، يضرب، ويلكم بطنها. سقط تونيو، فسقطت كوستوديا، ثم انهارت الحماة فوقهما. أنجبت

---

(1) يطلق البرازيليون على هذا النوع من الفاصولياء السوداء اسم «فييجاو»، وكانت تشكّل الغذاء الرئيس للعبيد. -المترجم-

كوستوديا أربعة أطفال معه، وانتفخ بطنها أربع مرات إلى جانبه، ولم يجرؤ أبداً على ضربها. كانت الحماة تصيح:

- تونيو، حذار أن تصيب بطنها! حذار، يا تونيو!

والآن، كانت هي، دونا سانتينا، هي التي تسحقها. حاولت كوستوديا أن تتجنّبها.

- آي، دونا سانتينا!

- اخرسي، أيتها الشقية، اخرسي! دمدمت الأخرى بين أسنانها.

في اليوم الموالي، منعت الآلامُ كوستوديا من أن تنهض. وبعد الظهيرة، وضعت بنتاً وُلدت ميتة. أخذت دونا سانتينا الكتاب المقدّس وراحت تصلّي. دفنت الرضيع في خلفية الحديقة. وفجأة، تذكرت أن الجرّافات ستأتي قريباً جداً. أخرجت الرضيع من تحت التراب، ولفّته في جرائد قديمة، ثم ذهبت. رأت كوستوديا المشهد بكامله. كان تونيو، يشخر، نائماً كأنه برميل من ماء الحياة.

حدث كل هذا قبل أسبوع. لم تفهم كوستوديا لماذا أقدمت دونا سانتينا على ذلك الفعل. كان البعض يقول إن دونا سانتينا، رغم الكتاب المقدّس، امرأة شريرة. كلما كانت كوستوديا حبلى تصبح الحماة عدوتها. لكن، هذه المرة، لم يلاحظ الجيران شيئاً وهم منشغلون بخطّة هدم الفافيلا التي استأنفت من جديد.

عندما علمَ تونيو بالأمر، شربَ أكثر من اللازم. انتبهت الحماة إلى أن كوستوديا تنزف دماً.

- سأتكلف بها هناك في الأسفل. الآن، لنصلي.

فتحت دونا سانتينا الكتاب المقدّس ثم وضعت يدها على بطن كوستوديا.

شقت الشاحنة آخر غيمات الغبار ثم وصلت إلى الطريق المُعبّدة. كانت تحملهم إلى الجهة الأخرى من المدينة حيث بدأت تنبت فافيلا جديدة.

كانت الجدة ريتا حزينة، لكنها تخفي حزنها. إنها لا تستطيع، ولا تريد أن تترك حزنها ليظهر. في الآونة الأخيرة، كانت الأخرى تشعر بمرارة كبيرة! ثم إن العالم يفيض مرارة. استُأنفت عملية هدم الفافيلا بقوة. كان المهندسون الحضريون يلحّون على السكان ليغادروا بسرعة. عليهم أن يجمعوا قججهم ويرحلوا بأسرع وقت! من اختاروا الآجُرّ وبعض الألواح الخشبية كانوا على الأقل يملكون بعض المواد لبناء كوخ في مكان آخر، في فافيلا أخرى.

رأت الجدة ريتا الشاحنة تختفي. في ظرف أسبوعين، كانت أكثر من خمسين عائلة، ممّن تلقّوا إشعاراً بالإفراغ قبل موت الرجال - الأطفال - العاطلين، قد غادروا على وجه السرعة. أما من اختاروا المبلغ المالي فقد صرفوه، وأصبحت وضعيّتهم أسوأ ممّا كانت عليه من قبل.

فكّرت الجدة ريتا في كوستوديا. كانت قد وجدتها محبَطة، وزال انتفاخ بطنها. كانت تريد أن تسأل عن أخبارها، لكنها صمتت أمام ذلك الحزن المرسوم على وجهها. فانتابها القلق. كانت المرأة الشابة في شهرها الثامن، وحتى الأسبوع الماضي، كان بطنها ضخماً جداً! كانت تنتظر طفلها الخامس. وكان حجمها يزداد، ويزداد. ساعدتها الجدة ريتا في فترات حملها الثلاثة الأولى، فقطعت سُرّات الأطفال، وتكلّفت بحمّامهم الأول.

كانت الجدة ريتا هي القابلةُ في الفافيلا. عدد كبير من الرجال والنساء هنا مرّوا بين يديها. كان الجميع يحبها. يندلع شجارٌ، لكن ما أن يسمعوا صوت الجدة ريتا حتى يذهب كل واحد لحال سبيله. لم تكن في حاجة إلى أن تقول أي شيء آخر. كان صوتها كافياً لتجرّد كل متبجّح من ادّعاءاته. كان حب الجدة ريتا يجرّد أياً كان من سلاحه. وكان يُقال إن فوينيا بدوره كان يحترمها. قبل أن تذهب الجدة ريتا لتسكن مع الأخرى، كانت الجدة ريتا وبونيادي فقط هما من كانا يزورانه.

كانت الجدة ريتا تشعر أن شيئاً خطيراً ألمّ بكوستوديا. لماذا لم يتحدث أي أحد عن أي شيء؟ كان أطفالها دائماً يولدون في الوقت المناسب. والمرأة قوية البنية. هذا الطفل لن يولد على يديها. كانت يداها منشغلتين بشيء آخر. فكرت في الأخرى وابتسمت. منذ قررت أن تبقى معها اضطرّت إلى التوقف عن مساعدة من يأتون إلى الدنيا. تأسّف الناس لذلك، لكنهم فهموا الوضع. كانت الجدة ريتا هي الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يستقبل الأخرى. كانت الجدة ريتا تملك قلباً كبيراً! وحدها الجدة ريتا لن تترك الأخرى وسط وحدتها.

كان العم توتو يشيخُ، ويفقد الأمل. كان يرى الحياة تمضي منحرفة. رأى النهر يأخذ الحياة في دوّامة. ورأى الدوّامة تأخذ حياته. كانت الحجارة الحادة تجرح صدره.

كان عدد أكبر فأكبر من العائلات يغادرون. فمتى يأتي دورهم؟ ماذا سيكون مصير ماريا الكبرى، وماريا الصغرى، وماما جوانا، والأطفال؟ لقد كانوا دائماً مجتمعين، وسيرحلون مجتمعين، من دونه. لقد كان هنا منذ سنوات عديدة. كان قد وصل مع تونا السوداء قبل خمسين عاماً. وهنا ازداد أبناؤه، وهنا فقدهم.

كان العم توتو يشيخُ. ليس تحت وطأة السنين، بل تحت وطأة الآلام التي قدمتها له الحياة هدية.

كانت ماريا الصغرى تتجول في البقع التي أفرغت للتو، وغبار دموع الحزن في عينيها. حيثُ كانت تنتصب أكواخ من رحلوا للتو هذا الصباح، لم يعد هناك سوى فراغ هائل. مثل جسد قطعت أطرافه شيئاً فشيئاً. انتابها الألم. فكرت في الجدة ريتا. شعرت برغبة في زيارتها، لكنها عادت إلى البيت مطأطأة الرأس، تغرس قدميها في أرض متفتتة ومغبَّرة. وكلما غاصت قدماها في الأرض الرخوة، كلما شعرت بالفراغ في صدرها.

«لا أريد أن أبكي. أريد أن أحتفظ بهذا الألم».

كان العم توتو هناك، برأسه الأشيب والمطأطأ. سمع العم توتو وقع خطوات. رأى أمامه أقداماً نحيفة، مغبَّرة، وخفيفة. فتكهّن بصاحبتها. طلب من ماريا الصغرى ألّا تقول شيئاً. «أعرفُ، ولكن البعض قد رحلوا! سأحكي لك كيف وصلتُ إلى هنا».

أخذ توتو وتوينا السوداء الطريق حتى وصلا إلى العاصمة مشياً على الأقدام. لم يكونا على عجل من أمرهما، بل مكثا طويلاً في مزرعة كانت توينا السوداء تظن أنهما سيستقرّان فيها. كان توتو يشتغل في الحقول، يغرس أو يجني. أما توينا السوداء فتعمل في المطبخ. لكنهما كانا أحياناً يشتغلان معاً في الحقول. كان بعض الأسياد، حين يعلمون أنهما زوج وامرأة، يوفّران لهما غرفة صغيرة أو كوخاً.

لكن رغبة كانت تدمي، وتقلِق صدر توينا السوداء وبطنها. كان توتو سخياً لا يمنّ على أحد بالضحك والابتسامة، ورغم كل ما يجود به من سخاء، لم يهبها بعد أطفالاً، مع أنهما كانا معاً منذ خمس سنوات. يبدو أن ذلك لم يكن يزعج توتو الذي يكدّ ويدخر ما يكسبه. عندما يصلان إلى المدينة سيقتنيان كوخاً. ثم سيأتي الأبناء بعد ذلك. «لا تشغلي بالك يا عزيزتي السوداء، سوف يأتي الأبناء!».

هكذا وصلا إلى المدينة، مع أولى نوبات قيء توينا السوداء، يحملان متاعاً قليلاً، وشيئاً من المال في كيس خاص بالطحين. آه، كم كانا سعيدَين في تلك الفترة! حياة جديدة، وأحلام كبيرة أنسَتهُ آلام الماضي قليلاً. لم يخبر توينا السوداء أنه كان له في يوم من الأيام زوجة وبنت. لم يحكِ لها قط أن النهر حمل كل شيء في الدوامة. وقتاً طويلاً بعد ذلك فقط، بعد أعوام وأعوام، سيروي تلك الحكاية للمارياتين، ماريا الكبرى وماريا الصغرى.

كان توتو سعيداً. إنه يحب المدينة، بضوضائها المختلف عن هدوء المَزراع. صحيح أنه في المناطق الداخلية كانت هناك بعض السيارات، وكان ملّاك الأراضي دائماً يملكون سيارة، لكن في المدينة، يبدو كأن هناك سيارة لكلّ شخص، لكثرة عددها. وبدأت أحلام جديدة تنبت في ذهن توتو. شيئاً فشيئاً أدرك أين سيستقرّ. كان أحد الأصدقاء في انتظارهما. كان توتو يملك ما يكفي من المال لشراء كوخ. سوف يتعلّم مهنة. سيتعلّم كيف يبني منازل بالأسمنت، والآجُرّ. في البادية، كان يعرف كيف يبني بيوتاً بالطين والقشّ. في العاصمة، عليه أن يتعلّم كل شيء، وعليه أن يتعلّم نمط حياة جديد... في البادية، كانت البيوت بعيدة عن بعضها البعض؛ أما هنا، فالناس جيران رغم أنفهم.

«عندما وصلتُ إلى الفافيلا، كانت لا تزال هناك كثير من البقع. في البداية، كان بيتي يتكوّن من غرفة واحدة، ثم وسّعته مع مرور الوقت. واليوم، يا صغيرتي، أصبح يتكون من أربع غرف! هنا بدأتُ مع توينا السوداء. امرأة تتقن العناية، البيت، الأشياء، وهي، كل شيء كان نظيفاً! لكنها انتفخت كثيراً مع التوأمين... كنا نمزح فنقول

إن الغرفة لن تتسع لها في نهاية المطاف. في بعض الأيام، كان منظرها مؤلماً، عزيزتي توينا السوداء! عزيزتي توينا الهشّة كانت ضخمة، بعد أن انتفخت قدماها وساقاها كأنها براميل. كان منظرها يدعو للشفقة. كنتُ أنظر إلى توينا السوداء فأشعر بحدس ينذر بالشؤم. حينئذ، أضحكُ، أبتسم، أنفجر ضاحكاً. كنتُ أعرف أن توينا السوداء تحب ضحكاتي. كانت توينا السوداء تضحك، وترافقني، إلى أن تحوَّل ضحكها، ذات يوم، إلى بكاء.

«توتو. أعرف أنهما اثنان، ولدٌ وبنت. وأعرف أيضاً أنك ستعتني بهما لوحدك. أعرف أنه بعد بضعة أيام...».

ثم حبس توتو على الفور الضحكة التي كانت في حلقه. شعر وعاش من جديد مشهداً نسيه لمدة طويلة، وخبّأه في أعماق صدره. بدأ رأسه يدور. جلس. نظر إلى بطن توينا السوداء. تحرّك التوأمان، وهما يستجيبان لنظرات أبيهما.

مرة أخرى، شعر أنه كان سالماً ووحيداً.

كانت دورا امرأة جميلة جداً. خلاسية فارعة الطول. كان الرجال الذين يصبون إلى غوايتها ينشدون هذا اللحن: «**دورا، يا ملكة الفريفو والماكاراتاو**»[1].

(1) شكلان من أشكال الموسيقى الكرنفالية في البرازيل. -المترجم-

فتضحك، سعيدة. كان كوخها يقع في زاوية زقاق يتفرّعُ بعد ذلك إلى ثلاثة أزقّة أخرى، تتفرق بدورها إلى أزقة أخرى. وكان المرور أمام باب كوخ دورا أمراً ضرورياً بالنسبة إلى كل أهل الفافيلا تقريباً. كانت دورا معروفة لدى الجميع. كانت ضمن مجموعة مصلّيات التسبيح الرسميات. تملك صوتاً قوياً ورخيماً. ولها جسد رخيم أيضاً. كان الرجال يحومون حول كوخ دورا وجسدها.

كانت سعيدة. من حين إلى آخر، كان لها رجل، رفيق. يعيشان معاً لفترة ثم يفترقان. لم أفهم قط لماذا: لم نكن نسمع شجاراً، ولا بكاء. ما كنا نسمعه من الداخل، ويتناهى إلى آذاننا من داخل كوخ دورا، كان تأوّهات، وتنهيدات مشحونة شبقاً وحُباً. كان بعض الرجال يلتصقون بأجسادهم وآذانهم مع الحائط. وتحت القمر والنجوم، يداعبون أجسادهم، مهتاجين بهمهمات دورا وهي بين ذراعَي رجل تلك اللحظة، فينزلقون نحو الكوخ وهم يموتون شبقاً.

اختار أليريو الأسود لنفسه بيتاً في كوخ دورا وجسدها، وقلبها.

كان النهار قد طلع للتو. والشمس، التي ما زالت مبلَّلة بمطر ليلة البارحة، ترمي بنبال أشعّتها دون جَمال. كان الجو بارداً ورطباً. غيّر أليريو الأسود ملابسه في بيت العم توتو. كانت ماريا الكبرى قد قدمت له قدحاً من القهوة الدافئة وصحناً من حساء الذرة. وكانت النظرة القوية لماريا الصغرى -سوداء صغيرة مختلفة، نحيفة، ذات عينَين فضوليتَين، ونظرة شبه جادّة وشبه حزينة- قد أربكتهُ. يبدو أنها تسأله عن شيء ما. قضى بقية الليلة عند العم توتو. كل شيء أثار اندهاشه: العم توتو، الكوخ المطلي بالجير الأبيض، الصليب

الخشبي المعلّق على الحائط، التاج الملكي، وطبل الكونغادا[1] الكبير الذي كان العم توتو يخرجه في حفلات الملوك السحرة بمناسبة عيد الظُّهور[2].

كانت تتعايش ثلاثة أجيال داخل الكوخ. لا بدَّ أن عمر العم توتو كان يفوق عمر ماريا الكبرى بأربعين سنة. نظر إليهما أليريو الأسود وقال مع نفسه إنه لو كان يعرف الرسم لأنجز لوحة رائعة. حاول أن يثبت ذلك المشهد في ذاكرته، لأنه شعر كما لو أنه أمام الخلود. الله خالد، لكنه خالد بطريقة ما، والإنسان أيضاً خالد، فكَّر. كانت ماريا الصغرى تبدو كأنها استمرار لهما. العجوز والزوجة خالدان بواسطة حفيدتهما...

استيقظ أليريو الأسود باكراً، باكراً جداً، ثم نهض وخرج من بيت العم توتو ومشى من دون وجهة، نحو الأمام بالضبط. اشتمّ رائحة الفطائر المقلية وعبير القهوة الساخنة. وجد الباب مفتوحاً فدخل. ثم وجد نفسه وجهاً لوجه أمام دورا.

وسرعان ما نشأ الحب والصداقة بين الاثنين. بعض جرعات من القهوة، بعض اللقم من الفطائر وها قد بدأت حكايتهما. تملّك كل واحد منهما حياةَ الآخر، التي لم تعد حقاً غريبة عنه بل أصبحت حياته إلى حدّ ما.

---

(1) عرض ثقافي ديني برازيلي ذو أصول أفريقية، يتكون من أناشيد ورقصات، ويصوّر مشهد تتويج ملك الكونغو احتفاء بالأصول الأفريقية. -المترجم-

(2) عيد يحتفل به النصارى في اليوم السادس من شهر يناير إحياء لذكرى ظهور الطفل المسيح للملوك المجوس، الذين يسمونهم أيضاً الملوك السحرة. -المترجم-

تذكرت دورا والدموع في عينَيها نفسها طفلةً صغيرة تحوم حول أمها وهي تحضر الفطائر للأسياد، وتذكرت والدها الذي رحل. تذكرت الطفل الذي أنجبته من رجل نامت معه مرة واحدة وحملت منه. تذكرت أغنية الطفولة التي تقول:

ذهبتُ إلى منبع تورورو...

دورا ستكون رفيقتي...

خلال حياتها، كانت رفيقة العديد من الرجال، وكان العديد من الرجال رفاقها. متعة كاملة. في شبابها الأول، وقبل أن يكون لها نهدان وجسد امرأة، كانت لدورا علاقات جنسية مع الشبّان. تخلّت باكراً عن سلبية المرأة التي تكتفي باستقبال يد الرجل وصارت تستكشف أجسادهم بيدها وفمها.

حكت ذلك لأليريو الأسود، كما حكت له عن أحداث أخرى من حياتها: عن الجوع، عن والدها الذي رحل يوماً ولم يعد قط، عن ذلك الإسباني الثري الذي كان يريد أن يتزوجها... زواج حقيقي، بتوقيع في البلدية ومباركة من الرّب! كان على وشك أن تقبل طلبه. لكن كان عليها أن تعيش في بلد أجنبي، بعيداً عن أمها، التي كانت قد أصبحت تعيش لوحدها! هكذا، نسيت الرجل، والزواج، والبلد الأجنبي. نسيت كل شيء. ثم ماتت أمها بعد ثلاثة أشهر.

تعلمت دورا كيف تحضّر الفطائر مع أمها. كانت طبّاخة ماهرة. لم يكن يعوزها أبداً بيت لتشتغل فيه، ولا يعوزها أبداً رجل ليرافقها. ذات يوم، جاء رجل ليزور المُشغِّلة، فانجذب لجمال دورا، التي انجذبت إليه بدورها، لأنها وجدته يشبه ذلك الإسباني. نامت معه.

لكن دورا، التي نامت مع العديد من الرجال، وظلت لعدة شهور مع ذلك الإسباني، ولم تحمل من أي واحد منهم، وجدت نفسها حاملاً من ذلك الرجل. بعد بضعة أشهر، جاء الرجل ليزور عشيقته. لاحظَ بطن دورا، وسألها إن كان الطفل من صلبه. أجابته دورا بالتأكيد. «حسناً، حسناً...». يمكنه أن يعتني بالطفل، ويربّيه. يمكن لدورا أن ترى الطفل متى شاءت. بل يمكنهما أن يتزوجا إن كانت ترغب في ذلك. لكن دورا لم تكن ترغب في أي شيء: لا تريد أن تتزوج، ولا أن يكون لها أطفال ولا أن تكون حاملاً. لم تكن تريد شيئاً. لقد نامت مع الرجل يومئذ وكانت تنام دائماً مع الرجال من أجل المتعة لا غير. فسلّمت ابنها للرجل وغادرت ذلك البيت.

واستمرّت الحياة، وكانت دورا سعيدة. سعيدة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وكانت دائماً قادرة على أن تكون سعيدة.

استمع أليريو الأسود إلى حكاية دورا وشعر أنه يحب هذه المرأة. لكنه لم يكن يفهم كيف يمكن أن يكون لها ابن لا ترتبط به. لها دوافعها. هو نفسه نام مع عدة نساء، وهو لا يبحث سوى عن الحب، والمتعة... الأبناء يأتون دائماً تقريباً دون أن يرغب المرء فيهم. وتتحمل النساء ثقل المسؤولية. يحملن البطن وما يرافقه من مشاكل. لم يسأل نفسه أبداً إن كانت امرأة ما قد حملت منه. لا بدَّ أن رفيقته كانت ستخبره بالأمر. لقد عاش دائماً، وتعايش مع النساء اللواتي صادفهنّ في حياته.

كانت حكايات دورا تروق لأليريو الأسود، رغم أنه يتساءل كيف لا يمكن لامرأة ذكية، ونشيطة مثلها ألّا تبني حياة مختلفة. وكان

ذلك يؤلمه. نظر إلى دورا. كانت تتكلم بكل جسدها. اجتاحته رغبة في أن يلقيها على السرير وينسج معها حكاية أخرى. حكاية تكون له هو، ولها هي، وربما لطفل ما. وتساءل إن كانت تشعر بالرغبة نفسها. نعم، لديه رغبة! لكن ليس اليوم. اليوم، كل ما يرغب فيه هو أن يتحدث عن نفسه ويسمعها تتحدث عن نفسها.

حكت له دورا كل شيء منذ طفولتها، بيد أن أليريو الأسود غضَّ الطرف عن جزء من حياته. بدأ حكايته من مرحلة الكبر. دون تفسير، غضَّ أليريو الأسود الطرف عن طفولته، عن الزمن الذي ترعرع خلاله، وتعلّم القراءة، وما رافق تلك الفترة من أحداث، كما لم يتحدث عن والديه، عن البيت، والحقول، والأصدقاء، والرفاق، رغم أهمية كل ذلك! ثم سكت أليريو الأسود. لا يعرف لماذا، لكنه سكت.

استحسنت دورا حكاية أليريو الأسود. حتى ذلك الإسباني الذي سافر كثيراً لم تكن حياته بكلّ هذه الجاذبية. رجل فقير، بسيط مثلها ويعرف القراءة؟! لا علم لها بالكثير من السود الذين يعرفون القراءة.

ولم يتبادلا اسميهما إلّا بعد أن تحدّثا لوقت طويل. هي، كان اسمها دورا. تحب كثيراً اسمها الشخصي. دورا تحب كل شيء في ذاتها. هو، اسمه أليريو الأسود. ينبغي أن يكون اسمه الشخصي أليريو بلا زيادة، لكنه يقول إن اسمه أليريو الأسود. راق لدورا أن تسمع كلمة «أسود» على لسان شخص أسود، لأنها لا تسمع كلمة «أسود» إلّا على لسان البيض، وتسمعها كإهانة: أسود متّسخ، ابن العاهرة السوداء، أسود مشاغب، وما إلى ذلك من عيوب ومثالب!

وهي تستمع إلى أليريو الأسود يروي حكايته، فكّرت دورا في الجدة ريتا وفي بونندادي، اللذان لا يسعيان سوى إلى فعل الخير. كان أليريو الأسود يتحدّث بهدوء وتمهُّل، كما لو أنه يُحدّثُ نفسه.

عندما وصل أليريو الأسود إلى المدينة، وجد أول عمل في قطاع البناء. كان يعرف بعض مبادئ مهنة البناء، والنجارة، وكان العمل لا يرهبه، على وجه الخصوص. يتفاهم جيداً مع زملائه. وكان كثير منهم ينامون في الورش. ليلاً، كان يستغلّ وقته ليقرأ ويعلِّم القراءة للآخرين. وفي وقت وجيز، أراد كل عمّال الورش أن يتعلّموا الحروف الأبجدية، وانخرط العديد منهم في متابعة الدروس الليلية.

ورشُ البناء، المخبزةُ، ومعملُ النسيج... أينما حلّ وارتحل، كان أليريو الأسود يحثّ رفاقه على تعلُّم القراءة. لكنه كان يشرح لهم أيضاً أنه ينبغي أن يتعلّموا قراءة الواقع، والمجتمع الذي يعيشون فيه. وفي أي مقاولة اشتغل فيها، كان أليريو الأسود يكتسب إخواناً جدداً، وأعداء جدداً من بين أرباب العمل.

كانت حكايات أليريو الأسود تعجبُ دورا، خصوصاً حين حكى لها أنه، حيث كان يعيش مؤخّراً كان هناك البحر. كل يوم، كان يرى الامتداد الشاسع للمياه.

كان رفاقه من عمّال رصيف الميناء يعرفون الكثير عن النقابات، والقوانين، والحقوق، والواجبات. رجال يتميّزون بالخشونة والحكمة. أقوياء ولا يتراجعون أمام أي شيء! كانوا على وعي بقوتهم. عندما يخوضون إضراباً، يشلّون الحركة في البرازيل بكاملها! لكنهم، بعد الإضراب، يتجشّمون عناء الانتقام. أحياناً، بعد شهر أو شهرين، يتمُّ تسريح الزعماء الواحد تلو الآخر. وكان أكثرهم وفاء قادرين على الموت من أجل الآخرين. هؤلاء حسموا في اختيار حياتهم: الكفاح من أجل قضية العمّال، التي لا يمكن أن يتخلّوا عنها أبداً. يفقدون عملهم... فهل تظنين أنهم يصبحون نعاجاً لهذا السبب؟ أبداً. يغيّرون العمل ويعودون أقوى من أي وقت مضى. في الميناء، التقيتُ رفاقاً من هذا النوع، كانوا أعضاء في الحزب، غالباً. استدعوني لاجتماعاتهم. حضرت بعض المرات، لكني لم أقتنِ بطاقة الحزب قط. فكرتُ في الأمر بجدّ لكني لم أجد وقتاً كي أتخذ قراراً.

ثم ساءت الأوضاع. اتهموا أحد رفاقنا بالسرقة وفصلوه عن العمل. ثار غضبنا. كنا نعرف أن ذلك كان مجرد ذريعة: لقد كان تيتاو أحد الزعماء الأكثر نشاطاً أثناء الإضراب الذي شلّ الحركة في أرصفة الميناء خلال الشهر المنصرم. وقتها، لم يقوموا بأي شيء ضدّه. قدّمنا آلاف الطلبات. وقّعنا عريضة تطالب بعودته. رفضوا. ويومئذ أوقفنا العمل وشبكنا أيدينا. «لن نستأنف العمل إلا بعد إعادة تيتاو إلى عمله!». هل تعرفين ماذا فعلوا؟ هل تعرفين ماذا كان ردّهم علينا؟ أنه لو رفصنا العمل بينما هناك سفن تنتظر الشحن وأخرى تنتظر التفريغ فإن أجورنا سوف تُعلَّقُ.

لم يحرّك أحد ساكناً. استمرّ الحال كذلك لمدة أسبوع. كنا نذهب كل صباح إلى الميناء، ونقيم الحواجز عند الباب.

ذات يوم، توصّلنا باستدعاء يقول إن عشرة منا مدعوون إلى المكتب. كنتُ واحداً منهم. كنا نعرف ما ينتظرنا. وذهبنا إلى هناك والخوف في أحشائنا. أنا لم أكن خائفاً، لأنني لم أكن مسؤولاً سوى عن نفسي، أما الآخرون فكانت لهم زوجات، وأولاد! في الخارج، كان الرفاق ينتظرون.

لم نكن مخطئين. وجّهوا لنا إنذاراً أخيراً: بعد عشر دقائق، إن لم نلتحق نحن ومن يرافقوننا بالعمل، فسيتم تسريحنا دون أن ننال أي حقّ من حقوقنا لأننا كنا نقود حركة الإضراب. لدينا بضع دقائق حتى نقنع رفاقنا بالانسحاب من فرقة المضربين. ولن تتم إعادة تيتاو إلى عمله.

غادرنا المكتب حزانى، ساخطين ومنهزمين. في قرارة نفسنا، لم نكن نريد استئناف العمل وتوقيف الإضراب دون الحصول على إعادة تيتاو إلى عمله. كنا نريد أن نستمر في ممارسة الضغط. لكن بعض الرفاق كانوا يرون أننا نناضل عبثاً. «الأقوياء يظلون دائماً أقوياء والضعفاء يظلون دائماً ضعفاء، والوضع لن يتغيّر أبداً!». ويسوقون كمثال على ذلك ما وقع لتيتاو وما يمكن أن يقع لنا.

كنتُ أرفض أن أستمع إلى هؤلاء الرفاق. كنتُ خائفاً من أنهم يقولون الحقيقة، لأنه يجب أن تكون مؤمناً بالقضية، أن تكون مؤمناً بقوة! هذا ما كنتُ أفكّر فيه وأنا إلى جانب الرفاق.

أثناء ذلك، بما أننا بقينا وقتاً طويلاً، فقد دخلَ من ظلّوا بالخارج وخرّبوا كل شيء. اقتحموا السفن، كسروا كل شيء وخرجوا بسرعة. لم نجد حتى الوقت لنطلب منهم أن يكفّوا عن ذلك أو أن يستمروا في حماقاتهم. وصلت الشرطة بسرعة. مطارق، غازات مسيلة للدموع، كلاب، مطاردات...

علمتُ، بعد ذلك، أن الشرطة كانت تبحث عني. لقد كنتُ ولا أزال شخصاً متمرّداً.

اختفى بعض الرفاق. هل هربوا؟ هل تبخّروا؟ لا أعلمُ. وصلت إلى هنا. متى حدث ذلك؟

حدث كل هذا قبل أسبوعين فقط... لا أعرف إن كنتُ سأرى هؤلاء الرفاق مرة أخرى. لكني، أعرف أنه حتى لو لم أرهم أبداً، فسأجد هنا أو في مكان آخر رفاقاً آخرين، وإخوة آخرين.

كانت ديتينيا تنظر إلى مجوهرات سيدتها فتلمعُ عيناها ببريق أقوى من بريق الحجارة التي ترصّعها.

كانت تنظف الغرفة، تكنس تحت السرير، وتزيل خيوط العنكبوت عن السقف. «كم هو جميل بيت العنكبوت هذا!... نسيج رائع!»، ثم أضاء شعاع من الشمس الخيوط المتشابكة، فجعلها تلمع

كالمجوهرات. نظرت ديتينيا إلى الخيوط، نظرت إلى العنكبوت، وإلى المجوهرات. أزالت الغبار عن الدولاب، رتبت الأحذية في الخزانة وألقت الغطاء بعناية فوق السرير. أخذت غطاء السرير الأصفر المذهّب من الدولاب وبسطته. فكرت في المجوهرات. «هل أريد أن تكون لي مثل هذه الحلي؟ لو كنتُ أملكها فإنني لا أملك الفستان والحذاء اللذين يناسبانها. وحتى لو كنتُ أملك الفستان والحذاء المناسبَين، لن أعرف كيف يجب أن تكون تسريحة شعري...».

نظرت إلى نفسها في المرآة فشعرت أنها دميمة، أكثر دمامة من العادة. «وماذا لو كان لي فستان وحذاء وعرفت كيف أضع تسريحة شعري؟» كان ديتينيا تكره شعرها. «حتى لو كان كذلك، لن أعرف كيف أتزيّن بهذه الحلي». نظرت إلى المجوهرات مرة أخرى. كانت تلمع. اقتربت من علبة المجوهرات ويداها وراء ظهرها. كان هناك حجر جميل، مصقول كالمرآة، يبدو دقيقاً جداً... «اليدان وراء الظهر. لا نلمس سوى بالعين، وليس باليدين... لو كانت لي حلية كهذه، أين سأذهب؟ لا أغادر البيت سوى لأذهب إلى العمل، وإلى القداس لأصلّي، وإلى دوريات كرة القدم وحفلات الفافيلا. أين يمكن أن أتزيّن بهذه الحلية؟ طبعاً، لو كانت لي مجوهرات لكنت غنية مثل السيدة لاورا، لن أكون أنا» قالت متهكّمة من نفسها. أرادت أن تلمس المجوهرات، ولو قليلاً. خافت وتراجعت إلى الوراء.

حاولت ديتينيا أن تشيح بنظرها عن المجوهرات ثم هدمت ببرودة بيت العنكبوت. أخذ العنكبوت يجري فوق الحائط. أسقطته ديتينيا بسرعة وسحقته بعنف، كما لو أن الحشرة كانت وحشاً فظيعاً

يمكن أن يولد من جديد تحت قدميها. سحقته وهي تعضّ شفتيها، وعيناها مسمّرتان في المجوهرات.

دخلت السيدة لاورا إلى الغرفة، أخذت المجوهرات، وضعت القلادة حول عنقها، ثم وضعت الخاتم والسوار. جربتهما استعداداً لحفلة هذا المساء. استمرت ديتينيا في كنس الغرفة وأزالت ما تبقّى من العنكبوت. كانت تريد أن ترى سيدتها التي تنظر بإعجاب إلى نفسها في المرآة وتتخذ أوضاعاً وهي تضع المجوهرات. انحنت، أخذت القمامة، والرفش والمكنسة ثم خرجت إلى الرواق.

أنهت ديتينيا يوم عملها. خلعت المريلة، نهضت بسرعة، تناولت العشاء، وذهبت إلى بيتها. قبل ذلك، قامت رفقة السيدة بفحص كل غرف البيت. رائع! كل شيء يلمع! كأن البيت جوهرة حقيقية! هنّأت السيدةُ ديتينيا على عملها. كانت راضية على خدمتها، فتاة ذكية، تقوم تماماً بما يُطلب منها. لا وجود ولا لذرّة غبار واحدة. ستكون الحفلة رائعة هذا المساء! سينبهر الضيوف. كانت الطبّاخة تنتهي من تحضير آخر الأطباق. نظرت ديتينيا إلى سيدتها فرأت الرضا مرسوماً على محياها. كم كانت السيدة لاورا جميلة! فارعة، شقراء، وعيناها بلون هذا الحجر الكريم. كانت ديتينيا تحب كثيراً السيدة لاورا والسيدة لاورا تحب كثيراً عمل ديتينيا. أمام جمال السيدة لاورا كانت ديتينيا تشعر بفداحة قبحها. خفضت عينيها، خجلاً من ذاتها. وبارتياح سمعت السيدة لاورا تقول:

- يمكنك أن تنصرفي. أنتظرك غداً، لأن هناك الكثير ممّا ينبغي أن تقومي به.

كانت الفافيلا لا تبعد كثيراً عن الحيّ الراقي. وكانت فيلا السيدة وكوخ ديتينيا متجاورَين أيضاً. قد تصل ديتينيا إلى بيتها في بضع دقائق لكنها لم تكن ترغب في ذلك. قرّرت أن تقوم بجولة في الحيّ قبل أن تعود إلى بيتها، حتى تؤجّل لقاءها مع البؤس. كانت ديتينيا تعيش مع أطفالها الثلاثة، وأختها، ووالده المشلول في كوخ من غرفتين، مطبخ وغرفة صالون ينامون فيها جميعاً. وفي الخارج، مرحاضٌ عبارة عن ثقب وحفرة.

كان أبناء ديتينيا يبلغون من العمر ثلاثة عشر، عشرة، وثمانية أعوام. دخلوا إلى المدرسة منذ قرون وما زالوا دائماً في القسم الأول. كان بيتو اليوم رجلاً تقريباً. غادر المدرسة وأصبح يتسكع في الفافيلا طوال اليوم. كانت ديتينيا تخشى أن يسلك زي ونيكو مسلكهُ. كان نيكو، وهو الأصغر، لا يزال يطيع جده المشلول الذي كان مكلّفاً بمراقبة الأطفال. أختها، تونينيا، كانت خرقاء. عندما كانت صغيرة، كانت ديتينيا تبسط عليها سيطرتها. وتمكّنت من إبقائها في البيت لتراقب الأطفال، وتعتني بالأب، حين تذهب إلى العمل. لكن، منذ بلغت سنّ الثامنة عشرة، لم تعد تهتم بأحد، لا بأبيها، ولا بأختها، ولا بأبناء أختها. كانت ديتينيا تخشى أن تجد أختُها نفسها قريباً في هذا الوضع: ثلاثة أطفال، بؤس، ووحدة تامة.

لم يكن عمر ديتينيا يتجاوز الخامسة عشرة حين حملت لأول مرة من عشيقها. لم تكن علاقتهما جدية وسرعان ما انتهت بشكلٍ سيّئ جداً. وقتئذ، كانت أمها قد ماتت ووالدها لم يكن قد شُلّ بعد. كان يشتغل مساعد بناء. لم يُثِر وقتها صخباً بسبب ذلك. ثم إن

والدها لم يُثِر أي صخب في حياته. كان يشتغل، يشتري ما استطاع بمال أجره ويشرب عند نهاية الأسبوع. يعود إلى البيت سكران، يتمدّد ويغطّ في الشخير. حين يرتفع شخيرُه ويحرمُ ديتينيا وتونينيا من النوم، كانت ديتينيا تنهض وتغيّر وضعية والدها ثم يعود ثلاثتهم إلى النوم. لم يكن هناك من شيء يمكن القيام به غير النوم. حين انتبهت ديتينيا إلى أنها حامل، تناولت نبتة الشيطان، شربت نقع الليمون والخل، نطّت، رقصت، مشت في مواكب السامبا، لكنها لم تفلح في إسقاط الجنين من بطنها. فكرت في الجدة ريتا، القابلة التي تحظى بثقة أهل الفافيلا. لكن الجدة ريتا كانت تساعد الأطفال على الخروج إلى الحياة ولا يمكنها، ولو مقابل مال كثير، أن تقوم بالإجهاض. يُحكى أن سيدة غنية كانت قد زارت الجدة ريتا وعرضت عليها مبلغاً كبيراً من المال كي تجهض ابنتها، لكن الجدة ريتا رفضت. كانت الجدة ريتا لا ترفض الحب ولا يربطها أي ميثاق مع الموت، بل كان ميثاقها مع الحياة.

انتفخ بطن ديتينيا.

كان عمر بيتو ثلاث عشرة سنة، وأمه خائفة على مستقبله.

بعده ازدادت زي ونيكو. كما حدث مع الأول، كانت تريد أن تمنع بطنها من الانتفاخ، فتناولت مسحوق نبتة الشيطان دون جدوى.

أثناء الحمل الثالث، بعد أن أدركت أن الأعشاب القوية وعلاجات أخرى لن تجدي شيئاً ضدّ جسدها القوي كامرأة وَلُود، ذهبت ديتينيا لترى ماريا كوسمي، التي لم تكن حية الضمير مثل الجدة ريتا. غرست ماريا كوسمي إبرة داخل جسد ديتينيا وتركتها

هناك لمدة عشرة أيام حتى بدأت ديتينيا تُدمي. فقدت دماً كثيراً حتى أخذوها إلى المستشفى. طلب منها الأطباء أن تُبَلِّغ عن المُجَهّضة. لزمت ديتينيا الصمت. كانت مستعدّة لتخفي ماريا كوسمي في بيتها إن اقتضى الأمر! انتزعوا منها الرحم والمبيض. شعرت ديتينيا بالارتياح: لن تحمل مرة أخرى أبداً.

عندما عادت ديتينيا إلى كوخها، لم يكن بيتو وزي هناك. طلبت من نيكو أن يذهب ليبحث عنهما، لكن الصغير عاد لوحده، باكياً. كانت متعبة جداً! نظرت إلى والدها المشلول بعينَيه الحمراوين المحتقنتَين من أثر ماء الحياة. طلب منها العجوز أن تقدّم له ما يشرب، فجاءته بالشراب. المسكين! جامد في مكانه طوال اليوم، من دون أي متعة! قال الطبيب إن ماء الحياة ينقص من أيام عمره. «وما الفائدة من العيش على هذا الحال؟ من الأحسن أن يتركوه ليشرب حتى يموت».

كانت ديتينيا تشعر بالتعب والإهانة. نظرت إلى كوخها المتسخ. كانت الملابس متراكمة على الأرضية. نظرت إلى بيوت العناكب والسُّخام على الجدران. زكمت أنفها الرائحة الحادة المتصاعدة من بئر المرحاض. كان لا بدَّ من إلقاء بعض الجير الطبيعي فوق الغائط. انتظرت الأطفال دون جدوى. أخرجَت والدها من الكرسي المتحرك ومددته. كانت تفوح منه رائحة البول وماء الحياة. تذكرت سيدتها، النظيفة والجميلة كالمجوهرات. غداً، سيكون يوماً شاقاً، لأن البيت سيكون رأساً على عقب بعد الحفلة. كانت قد بدأت تتخيل جبلاً من الأواني. لكن، سيبقى شيء من الحلويات، والعقبة، ستقوم السيدة

بتقسيمها بينها هي وبين الطبّاخة والحاضنة. وستلمع عيون أطفالها أكثر من كل مجوهرات الدنيا بكاملها.

عندما عاد ولدا ديتينيا البكرين إلى البيت، كانت هي ووالدُها والابن الصغير يغطون في نوم عميق.

استيقظت ديتينيا وجسدها يؤلمها. كان والدها ينام في سرير لشخص واحد مع ابنها البكر. وهي تنام مع الآخرين. وقد صار من الصعب، يوماً بعد آخر، أن تتقاسم معهما السرير. إنهما يكبران بسرعة! كانت تونينيا تنام على الأرض حين تكون هنا في البيت.

نهضت ديتينيا وهيّأت الفطور لوالدها ولأطفالها. شيء من الرّز وبعض «الفاروفا»[1] الممزوج بالبيض. في كثير من الأحيان، حين تأكل في بيت سيدتها، تتذكر الأكل الذي تركته في بيتها، فيصبح الطعام أمامها كتلة سميكة فلا تقدر على ابتلاعه. تغرورق عيناها، فترمي ذلك الأكل اللذيذ وهي تفكر في ذويها الذين يتضورون جوعاً. تريد أن تضعه في علبة وتأخذه إلى البيت، لكنها تخجل من أن تطلب. كانت تشعر بخجلٍ كبير أمام السيدة لاورا!

غادرت ديتينيا بيتها وتوجّهت بخطى حثيثة نحو بيت السيدة لاورا، بقلب منقبض.

كان البيت رأساً على عقب! أطباق، صحون شبة مملوءة في كل مكان. الأرضية، التي صقلتها البارحة بكل عناية، كانت تلتصق بالأرجل وفوقها تتناثر بقايا الحلوى والمشروبات. كانت حفلة عيد

---

(1) أكلة شعبية برازيلية تتكون من طحين المنيهوت الذي يقلى مع الزبدة أو الدهون وتضاف إليه عناصر أخرى. -المترجم-

ميلاد السيدة لاورا ناجحة بكلّ المقاييس. لكن هذه الفوضى لم تزعج ديتينيا: مع كل هذا العمل، سيكون بالها مشغولاً.

عندما استيقظت السيدة لاورا، كان البيت مرتباً. أثنت على سرعة الخادمة وحذاقتها، وطلبت منها أن ترتّب غرفة النوم والهدايا بعد الانتهاء من غسل الأواني. كانت ديتينيا تريد أن تنتهي بسرعة لترى ما تلقّته السيدة من هدايا. فتذكرت عيد ميلادها، في الأسبوع المنصرم. تسعة وعشرون سنة. لم يتذكر أحد عيد ميلادها: لم تتذكره هي أيضاً، ولا والدها، ولا أبناؤها، ولا أختها تونينيا، التي اختفت منذ شهر... آه! على أي، ما الفرق إن هم تذكروا عيد ميلاده أو لم يتذكروه...

كان قلب ديتينيا يخفق بسرعة عندما دخلت إلى غرفة السيدة. يا إلهي، كل هذه الهدايا! كأنها أمام دكان. ثم باشرت عملها: على الرفّ، العطور التي ستجعل السيدة لاورا تزداد عطراً؛ هنا، القلادات، والأقراط، والمشابك. هنا، الأقمشة، والحرير، والأثواب الراقية، والأغطية. وعلبة الموسيقى هذه، يا لها من روعة! كل هذه الأشياء... هذا عيد ميلاد حقيقي! وشيئاً فشيئاً تلاشى منظر ما بعد الحفلة من الغرفة وعاد كل شيء إلى مكانه. الغطاء الأصفر المذهّب ملقى على السرير كما ينبغي. علبة المجوهرات موضوعة فوق منضدة الزينة. وتلك المجوهرات المتروكة جانباً، هل عليها أن ترتبها أيضاً؟ جمعت ديتينيا علب الحلي التي تلقّتها سيدتها البارحة مع بقية الهدايا. لكن هذه العلبة، هل عليها أن تجمعها؟ كانت السيدة لاورا تحب كثيراً

تلك المجوهرات، التي تقول إنها كانت في ملك جدتها، وجدة جدتها... العلبة فارغة والمجوهرات إلى جانبها.

كان قلب ديتينيا يحترق، كما تحترق يداها ووجهها. وفي لحظة سرمدية، أخذت ديتينيا الحلي ووضعتها في العلبة. وضعت الحجر الأخضر الناعم، الذي يبدو أكثر نعومة من كل الأشياء الأخرى. أغلقت العلبة. كانت تتأهّب بوضعه في الدولاب.

كانت الغرفة مرتبة تلمع من جديد. لقد انتهت مهمتها. قبل أن تضع علبة الحلي في الجارور الثالث من منضدة الزينة، أخذت ديتينيا الحجر الأخضر الجميل الصقيل كالمرآة، الذي يبدو ناعماً جداً. كان مِشبكاً. وضعت ديتينيا المِشبك على صدرها. ثم وضعته داخل صدرها، قرب النهد، داخل رافعة النهدين الوسخة. ولم يكن الحجر ناعماً كما تخيّلته. كان يجرح صدرها.

كانت فيلو غازوجينيا

تسعل، وتسعل. الدم يملأ فمها. يا إلهي، متى سينتهي كل هذا؟ تعرف أن نهايتها وشيكة. لكن هذا الموعد الوشيك - البعيد كانت يتأخّر كثيراً! شعرت بالعطش. نظرت إلى الجرّة الطينية والقدح المعدني بالقرب منها. ما عليها سوى أن تمدَّ ذراعها. حلمت أنها تتمكن من إنجاز تلك الحركة. وظلَّ فمها جافاً.

ثم سعلت فيلو غازجينيا ثانية. فكرت في ابنتها وحفيدتها اللتين دخلتا إلى المستشفى منذ عدة أشهر. تعانيان من المرض نفسه الذي ألمّ بها. فانتابها الندم، لأنها تشعر بالذنب. كانت هي أول من أصيب بالمرض. كانت ابنتها لا تزال تشتغل، وحفيدتها تعتني بها. ثم سرعان ما مرضتا كلاهما. استطاع صاحب العمل أن يدخلهما معاً إلى المستشفى. وكان يحاول عبثاً أن يجد مكاناً للعجوز فيلو، لكنها ربما ستموت قبل ذلك. الدم يصعد إلى فمها. كانت متعَبة. في الآونة الأخيرة، لم تعد قادرة على أن تفكر ولا حتى أن تبصق.

شعرت بالوحدة، إنها بداية الموت. يقال إن الموت لحظة وحدة قوية. فكرت في بونداي الذي كثيراً ما كان يزورها. كان رجلاً طاهراً! فكرت في الجدة ريتا، امرأة طاهرة! فكرت في أليريو الأسود، ذلك الوافد الجديد على الفافيلا الذي صار يعرف الجميع تقريباً. كان أليريو الأسود قد زارها عدة مرات، يحمل دائماً في يديه شيئاً بسيطاً للأكل.

فكرت في بونداي بقدر كبير من الحنين. ثم فكرت في الجدة ريتا، التي تعرفها منذ سنين. الجدة ريتا، العم توتو، هي، وبعض الآخرين... كأنهم كانوا دائماً يسكنون هنا، كأنهم ولدوا هنا، أو كأنهم هم من أخرجوا الفافيلا للوجود. كانت الجدة ريتا دائماً صديقتها. كان يقال إن الجدة ريتا صاحبة قلب كبير. وهذا صحيح!

خيط دم يسيل من فم فيلو غازوجينيا وصدرها يحترق... «يا إلهي، لا يمكن أن أرحل هكذا، لوحدي!»، كيف هي أحوال

ابنتها وحفيدتها؟ بذلت فيلو غازوجينيا مجهوداً كبيراً لتفتح عينيها. لكنها تقول مع نفسها من الأحسن أن تبقي عليهما مغمضتين. لماذا ستفتح عينيها؟ تعرف كوخها عن ظهر قلب. سريران: سريرُها وسرير تتقاسمه ابنتها وحفيدتها. وفي زاوية من الكوخ، الموقد ورفّ خشبي عليه قِرَب فارغة، صحون قديمة، أقداح وقدور معدنية، وطنجرة من الفخار. كانت إحدى القِرَب الفارغة، تلك الخاصة بدهون الجوز، تنظر إليها، جامدة. لم تكن تجرؤ على أن تطلب ممن يزورونها أن يبعدوا تلك القربة. كانت تلزم الصمت خوفاً من أن يظنوا أنها تعاني من الجنون بالإضافة إلى مرض السلّ. أغمضت عينيها، ورأت قربة دهون الجوز فانتابها الحقد، حقد قوي جداً. الدهون، وهذه الحياة النحيفة جداً! فكرت في شيء آخر، لأنه ليس أمراً جيداً أن يموت المرء وقلبه يفيض حقداً. كان العطش يحرق حنجرتها، رغم مذاق الدم الحلو في فمها.

لقد تأخّر بونـدادي كثيراً! شعرت فيلو غازوجينيا بحنين قوي إلى الزمن الذي كانت تنضح فيه بالحياة. يا له من تعب، هذا الهواء الذي ينقصها، وهذا الوزن الثقيل للعظام على صدرها! هل كانت هذه الأفكار هي التي تصيبها بكلّ هذا التعب؟ ثم أغمضت عينيها المغلقتين، وحاولت أن تنام. كان الصمت يخيم من حولها.

وأخيراً، وصل بونـدادي. دخل إلى كوخ فيلو غازوجينيا على رؤوس أصابع قدميه. فتح الباب والنافذة على مصراعيهما. فتسلّلت الشمس مضيئة. شعرت بها فيلو غازوجينيا. كان صدرها يحترق لكنها

شعرت بشيء من الهدوء. لن تعبر الباب الأخير لوحدها. كانت تعرف أنها تعيش آخر لحظاتها. شعرت بحنين قوي إلى الحياة. فتذكرت ابنتها، وحفيدتها، وزوجها الذي مات.

كانت الشمس تدفئ جسدها الخالي من العضلات والفارغ من الحياة. شعرت برغبة في البكاء، لأنها مريضة وسعيدة في الوقت ذاته. كانت تعرف أن بونندادي هناك ينظر إليها بقوة. تشعر بالعطش، عطش قوي. حَدَس بونندادي رغبتها الأخيرة، فنهض نحو الجرة وملأ قدحاً. وهو ينجز طقس الحياة والموت، بتثاقل ووقار، أسند رأس فيلو غازوجينيا وجعلها تشرب الماء جرعات صغيرة. كان مجهوداً كبيراً، آخر مجهود تقوم به. لم تتمكن من ابتلاع آخر جرعة فاحتفظت بها في فمها حتى تشعر بمذاق التراب الذي تمنحه الجرة الطينية للماء.

أنجز بونندادي آخر حركة من حركات ذلك الطقس وأراح بتثاقل رأس فيلو غازوجينيا. كان الصمت يخيم في كل مكان، وفي كل شيء.

لاحظ الجيران النافذة والباب مشرعَين، فاقتربوا. لم تعد فيلو غازوجينيا تشعر بأي شيء. كانت تعبر الباب الأخير. أخذ وجهها يلين رغم الألم. وعلى شفتيها، ما يشبه ابتسامة، ربما.

فوق المنحدر للتو، فشعرت بانقباض في صدرها. كانت كلما مرّت من هنا، تتذكر سيليتا، حفيدة فيلو غازوجينيا، التي كان لها نفس سنها وتموت في المستشفى، نتيجة المرض نفسه الذي ألمّ بأمها وبجدتها. لما رأت النافذة والباب مشرعين، تكهّنت بالحزن. رأت جيران فيلو غازوجينيا يقتربون. فاقتربت بدورها، ومن النافذة رأت كل شيء.

تركت نحافة الجسم العجوز انطباعاً قوياً في نفسها. كان بإمكانها أن تعدّ العظام بيدها. كيف يمكن أن يموت المرء هكذا؟ كانت فيلو غازوجينيا تشتغل دائماً. وابنتها أيضاً، عندما لم يكن المرض قد ألمّ بها بعد، وكانت فيلو هي من تعتني بالحفيدة وتغسل الملابس أيضاً. في أغلب الأحيان مع ماريا الكبرى وماما جوانا. كانت سطول النساء الثلاثة تستقر دائماً قرب الصنبور. كانت بعض الغسالات لا تأخذ السطول إلى البيت لأنهنّ يعرفن أنه سيرجعن عند الغد، وفي اليوم الموالي، وكل يوم. عندما تغيب إحدى الغسّالات، تستعمل صديقاتها سطلها. «ألن تأتي فيلو غازوجينيا اليوم؟ يجب الاحتفاظ بسطلها مملوءاً، حتى يظل خشبه مبلّلاً». لا، فيلو غازوجينيا لن تأتي أبداً، أبداً. لقد تعبت، وملّت من الحياة. جاء الموت ليحمل كل شيء.

كانت ماريا الصغرى تنظر إلى نحافة العجوز، ونحافة الغرفة، ونحافة الحياة. أحسّت بغصة في حلقها فانهمرت دموعها مثل قطرات اليأس. كانت تشعر بحزن كبير تجاه العجزة! فكرت في العم توتو

وفي ماريا الكبرى. ثم قالت مع نفسها إنها ستصبح عجوزاً بدورها في يوم من الأيام. كيف ستكون يوم تصبح كبيرة؟ كانت ماما جوانا، وماريا الكبرى، والعم تاتاو يقولون جميعاً إن حياتها هي ستكون مختلفة. فهل ستكون كذلك؟ صحيح أنها تتابع دراستها. ضمّت ماريا الصغرى كتبها ودفاترها إلى صدرها، لأن فيها خلاصها. كانت تحب أن تتعلم لكنها لا تحب الذهاب إلى المدرسة. كانت تخاف وتشعر بالخجل من كل شيء، ومن رفاقها، ومن الأساتذة. تلجأ إلى الحيلة، فتحوّل خوفها وخجلها إلى شجاعة. كان لها امتياز على رفاقها: كانت تطالع كثيراً. تقرأ وتقارن شيئاً بشيء آخر. كانت تقارن كل شيء، ودائماً ما تتوصّل إلى استنتاج. ذات يوم، قالت لها أستاذة التاريخ، أمام الجميع، إنها التلميذة الوحيدة التي تصل إلى استنتاجات. وغالباً ما كانت أستاذة اللغة البرتغالية تثني على نصوص إنشائها.

كان اليأس والحزن لا يزالان ينهمران من عينَي ماريا الصغرى، ويشوّشان على نظرها. لكنها تريد أن ترى كل شيء! كان بونادي يسند بوقار رأس فيلو غازوجينيا. لو لم تذهب الجدة ريتا لتسكن مع الأخرى، لكانت هي من يحضر هنا. فشعرت برغبة في رؤية الجدة ريتا. الجدة ريتا لن تموت أبداً! كانت عجوزاً، لكن ماريا الصغرى لا تشعر بالحزن تجاهها. لم تكن الجدة ريتا تعطيها أبداً الانطباع بأنها تعيش لوحدها.

نظرت ماريا الصغرى إلى ملابس بونادي الرثة، وإلى حركاته الخفيفة، وقالت لنفسها إنها ترى حلماً حزيناً.

رفع القدح المعدني إلى فم العجوز. لماذا تموت فيلو غازوجينيا؟ لماذ يموت الناس؟ هي بدورها سوف تموت في يوم من الأيام. كان العم تاتاو يقول إن الناس يموتون، لكنهم في الواقع لا يموتون: يستمرون أحياء في الآخرين. وكان يقول إن عليها أن تحقّق ذاتها. عليها أن تبحث عن حياة أخرى، وتفجّر كل ما بداخلها من أشياء جميلة. وذات يوم قال لها، كمن يوجّه لها أمراً (كان العم تاتاو إنساناً عصبيّاً، يعاني من عُصاب الحرب):

- أيتها الصغيرة، العالم، الحياة، كل شيء هنا! إن شعبنا لم يحصل على أي شيء تقريباً. إن كل من يموتون دون أن يحقّقوا ذواتهم، كل السود العبيد فيما مضى، وكل السود من الأحرار المزعومين اليوم، يتحرّرون في حياة كل واحد منا نحن الذين ننجح في الحياة، وننجح في تحقيق ذواتنا. إن حياتك، أيتها السوداء الصغيرة، ليست لك وحدك فحسب. من خلالك سوف يحقّق الكثير من الناس ذواتهم. أنينُهم دائم حاضر هنا. يجب أن نسيخ السمع، ونفتح العيون والقلوب.

وكانت ماريا الصغرى هناك، تسيخ السمع وتفتح عينيها وقلبها على مصراعيهما، وتسجّل بدواخلها آخر حركات موت-حياة فيلو غازوجينيا. كان لديها الانطباع بأن العجوز تموت سعيدة؟ سعيدة لأنها تموت؟ لم تكن ماريا الصغرى ترغب في الموت. صدرها ينقبض، يكاد ينفجر. يا إلهي، كانت فيلو غازوجينيا تموت! وكم مات أيضاً غيرها من الناس. كانت تشعر بالخوف، بخوف شديد...

كان بعض الجيران يخرجون من الأزقة شيئاً فشيئاً، صامتين أو مثرثرين، حزانى. كانت فيلو غازوجينيا معروفة ومحبوبة في الفافيلا.

الموت... كل من كانوا هناك سوف يموتون في يوم من الأيام.

كانت فيلو غازوجينيا تبتسم لحظة موتها. لماذا؟ البعض، عندما ييأسون من الحياة، يجدون في الموت ملاذهم الوحيد. تذكرت ماريا الصغرى تلك الفاجعة التي وقعت في الأسبوع الماضي. أسرعت الخطى، فرأت بقايا الرماد في مكان كوخ خورخي بالالايكا.

لقد وجد خورخي بالالايكا في النار حلّاً لآلام حياته.

كان خورخي بالالايكا قد وصل إلى الفافيلا منذ زمن طويل مع زوجته روث وابنيه. كان يشتغل في مجزرة ويتمتع بوضعية يُحسد عليها، لأنه يأكل اللحم كل يوم. كان صاحب المجزرة يوزّع على المستخدمين ما فسد من اللحم، بالإضافة إلى الشحم، والأعصاب وكل ما لا يصلح للبيع. وإذا كان القِدر يخلو من الرّز والفاصولياء فإن «الفاروفا» كان دائماً يزيَّن بقطع صغيرة من اللحم، والشحم، أو الدهون.

كان ابنا خورخي بالالايكا بدينَين. كانت زوجته، روث بالالايكا، صموتاً ولا تتفاهم مع الجيران كما ينبغي. أحياناً، تخرج

من البيت دون أن تخبر أحداً بوجهتها. فيبقى الطفلان لوحدهما. يعود خورخي إلى البيت فيغسلهما، ويطعمهما، ويضعهما في سرير النوم. «ستعود بعد قليل، أو غداً». وذات يوم، لم تعد.

كان خورخي بالالايكا يغادر البيت باكراً في الصباح ولا يعود إلى آخر المساء. يبقى الطفلان من دون أمهما، مستسلمين لمصيرهما. لم يكن خورخي يرغب في أحد، ولا يسمع أحداً. كان يخجل من الاغتياب والمزاح. كان يُقال إن روث قد تركت خورخي بالالايكا من أجل خبّاز. وكانت النكتة الشائعة تقول إنها فضّلت الخبز على اللحم، في نهاية الأمر. «البلهاء، كان عليها أن تبقى مع الاثنين، لتأكل كل يوم ساندويتشاً باللحم!».

كان جسد وقلب خورخي بالالايكا يغليان. كانت روحه وجسده يحترقان. حنين قوي، حنين قوي إلى روث... كان خورخي بالالايكا يحب زوجته. ذات يوم، وكان ألمه قد اشتدّ، مرّ إلى بقالة سو لاديسلاو. شرب، وشرب، وشرب. ترنّح، ثم شرب، وشرب. أدرك كلُّ الزبائن أنه سيحرق حنجرته، ويفرط في شرب ماء الحياة. عاد إلى بيته، وطلب من ابنيه أن يذهبا لينامَا عند ابن عمه جويل، الذي كان يسكن في زقاق مجاور. «أبلغا ابن عمي جويل سلامي. وأخبراه أنني سأحرق ألمي». عندما وصل ابن العم جويل إلى بيت خورخي بالالايكا، كان الرجل قد رشّ نفسه بالكحول وأضرم النار في الكوخ. وفي الأزقة المجاورة، تعالى النحيب، وصياح الرجل وهو يحرق ألمه.

يرى أن خورخي بالالايكا أبله بعض الشيء. يا للحماقة، يا للبله أن يقتل نفسه من أجل روث! عندما كانا شابَّين، وبينما كان جويل يغازل كل نساء الجوار، ظلّ خورخي ملتصقاً بالفتاة نفسها. لقد كان وفياً طوال حياته: عندما يتعلّق بامرأة ويعاشرها، فإنه يكون لها فقط. لقد عرف القليل من النساء، ولم يكن معتاداً على السرّية، والحيلة، وألاعيب الحياة.

أما هو، جويل، فلم يكن يثق بأي أحد. لا ينام سوى بعين مغمضة واحدة، أما الأخرى فتظلُّ مفتوحة على مصراعيها! البلهاء من النساء هي من تحاول أن تخدعه. ستخسر الرهان مسبقاً!

- معي أنا لا تنفع حيل النساء! انظر إليّ: ثلاثة تحت السقف نفسه! أعرف أن هناك كلاماً كثيراً في غيابي، لكني لا أعيره اهتماماً! لا أجبر أحداً، ولا أقيّد أحداً. إن بقيت الثلاثة، فلأنهنّ يردن ذلك ويعجبهنّ! في البداية، كانت هناك بالبينا، التي التقيتُها ذات يوم في الساحة. فتكلّمنا، وتكلّمنا، حتى قبلَت أن تأتي لتسكن معي.

ذات يوم، طلبت مني إن كان بإمكان أختها موندیكا أن تبقى معنا ريثما تجد بيتاً تشتغل فيه. هكذا حلت موندیكا بالبيت. وجدت بيتاً تشتغل فيه، لكنها ظلت معنا، مع ذلك، لأنها لا تريد أن تنام عند مشغليها.

كانت بالبينا تذهب لوحدها لحضور الصلوات خلال شهر مايو. فأجدُ نفسي لوحدي مع موندیكا خلال المساء. بعد العودة من

الصلاة، لا تريد بالبينا أن تقترف الخطايا، فتتمدّدُ إلى جانبي دون أن تفعل أي شيء.

في الغرفة المجاورة، تنام موندیکا سعيدة، مرتاحة، هادئة، راضية. كان شيئاً جميلاً أن تكونا لي معاً! المزعج في الأمر أنه كان عليّ أن أختبئ، وأسرع لأن الأخرى يمكن أن تأتي في أي وقت وحين. وذات يوم، تأخّرت كثيراً مع موندیکا، فإذا ببالبينا تصل. «إذاً، قلت لنفسي، ها قد بدأت الفوضى». كدت أموت من الخوف، لكن بالبينا اكتفت بقول: «تنحّي جانباً، يا موندیکا، الآن جاء دوري!».

وبعد مرور بعض الوقت، أرادت الشقيقتان أن تجلبا الثالثة، أختهما الصغرى التي ظلت في البادية. فجاءت الأخت الصغيرة غضة، غضة جداً. فتاة صغيرة، خجول، خائفة، لكنها هائجة في الظلام! ليكا الجميلة، بجسدها الصلب. ذات يوم، ذهبت بالبينا للصلاة. كانت ليكا في الغرفة المجاورة. وما إن اجتازت الأخريان عتبة باب البيت حتى نادت عليّ ليكا.

الناس يقولون أشياء كثيرة. وماذا يهمّني ذلك؟ الشيء الوحيد الذي أقوله لثلاثتهنّ هو أنني لا أريد أطفالاً. لأن الأمور قد تصبح أكثر تعقيداً. كانت بالبينا تعرف كيف تحضّر النقوع، كما علّمها أحد الدجالين. كل شهر، في يوم محدّد من الشهر لا أعرفه، يبتلعن أعشابهنّ الساحرة. ويعرفن ما قلتُه: «إنني لا أريد أطفالاً!».

بعض أهل الفافيلا لا يتحدثون إلى ابن العم جويل، وخاصة النساء. الرجال لا يكترثون للأمر، يتعاطفون معه، بل يبدون إعجاباً بشجاعته. كان ابن العم جويل يضحك، ويضحك، ويضحك.

كانت النساء الثلاثة دائماً معاً لأداء الصلاة. لكنّ القديسين لا يزورون أبداً كوخهنّ. وهنّ لم يطلبن ذلك قط. كان الجميع يقول إنهنّ يعشن في حالة خطيئة مميتة.

الأخوات بالبينا، مونديكا وليكا، زوجات ابن العم جويل...

بعد موت فيلو غازوجينيا

أصيبت ماريا الصغرى بالاكتئاب. وكانت السوداء الصغيرة تميل إلى الحزن. يسري البانزو في دمها، ويسكن صدرها حنينٌ قوي إلى حياة بعيدة لم تعشها.

كان موت فيلو غازوجينيا مفاجأة لكل أهل الفافيلا، رغم أننا كنا نعرف جميعاً أن موتها كان مسألة أيام فقط. بل هناك من توسّل إلى الله أن يكون رحيلها في أقرب وقت ممكن.

كانت فيلو غازوجينيا تعرف أن نهايتها قد صارت وشيكة. طلبت أن ترى صديقتها لآخر مرة. ذهبت الجدة ريتا دون أن تقول شيئاً للأخرى. كانت تتحاشى أن تتحدث معها عن المرض وعن الموت. كانت الأخرى كئيبة جداً، كما لو أن الحزن كان منغرساً في جسدها، كما لو أنها كانت ممنوعة من السعادة. لم تعد الأخرى تعيسة كما كانت، كان الحزن شيئاً مألوفاً في دمها.

وصلت الجدة ريتا إلى بيت فيلو غازوجينيا ووقفت عند عتبة الباب. أشارت إليها فيلو غازوجينيا بالدخول، فلبّت الجدة ريتا دعوتها. كانت تعرف أن فيلو غازوجينيا ستموت. فدخلت وقبّلت بحنان وجه المريضة. ثم خرجت بسرعة كما دخلت.

كانت خطة هدم

الفافيلا تزعجنا جميعاً وتقضّ مضاجعنا. تمّت عمليات الطرد الأولى قبل عام، لكن الفافيلا كبيرة والمسلسل قد يستمرّ وقتاً طويلاً. كان لدينا الانطباع بأن المهندسين الحضريين بدورهم لا يعرفون لماذا يهدمون حيّنا. أحياناً، يقولون إنهم يفعلون ذلك لبناء مستشفى، وأحياناً لتشييد شركة للغاز، أو نادياً كبيراً، ربما. منذ سنوات ونحن نرى المهندسين يأتون من حين إلى آخر ويأخذون القياسات.

لم نكن نعرف من هم المُلّاك المفترضون: مقاولة خاصة، الحكومة؟ كنا خائفين. ولم نكتشف أننا لسنا الملّاكين «المفترضين» إلّا عندما أصبحت خطة الهدم أمراً واقعاً: كانوا هم الملّاكين الحقيقين، أو هكذا كانوا يتصرّفون، على الأقل. كان سكان الفافيلا يجمعون أشياءهم البسيطة، ويرحلون مكلومين، والحقد يغزو نفوسهم.

أثناء فترة الانتخابات، يظهر المرشحون ويعدوننا بالعمل لصالحنا. يحدّثوننا عن قانون «الملكية المكتسبة»، ويقولون إننا لن نطرد أبداً إن صوّتنا لصالحهم. فتتناسل المنشورات وتتكاثر الصور والشعارات. تزدانُ الأكواخ بألوانها، كما تتزين بها المراحيض لأن الإعلانات، والجرائد القديمة، والمنشورات، بعد أن تُقرأ بصعوبة - إن قُرأت- كانت لها وظيفة أخرى: تنظيف مؤخّراتنا. وجوه وعيون هؤلاء المرشحين الذين لن نراهم بعد ذلك أبداً، خصوصاً إن خرجوا فائزين من صناديق الاقتراع، كانت تلاحقنا حتى في حميميتنا. كنا نجد المنشورات في أي مكان.

كانت النساء والأطفال يتسلّون بالتصويت على أجمل المرشحين. ذات يوم، جاء مرشح أسود، وفرّق بدوره الأوراق يميناً وشمالاً. لكن القليل هم من كانوا يستمعون إليه. لن يفوز الأسود أبدًا، لأنه يبدو فقيراً مثلنا. أما في مسابقة الجمال، فلم يحصل سوى على أصوات قليلة.

من لا يفوزون يوم الاقتراع، يعودون بالوعود نفسها والمطالب نفسها، موجّهين اتهاماتهم للفائزين. ما الذي قام به الآخرون لأجلكم؟ «لا شيء» كانوا يجيبون عن أسئلتهم، كما لو أنهم لا يريدون الاستماع إلى جوابنا. ودائماً الأسطوانة نفسها: «لو فزتُ، لو فاز الحزب كذا، سوف تتغيّر وضعيتكم». أحياناً يفوزون، لكن وضعيتنا تظلُّ على حالها. لقد كنا أكبر الخاسرين. لم نكن نفوز أبداً.

بوفاة فيلو غازوجينيا غبط العجوزَ على حظّها. كم من المرضى، وكم من الأصحّاء والشباب سبقوه إلى الموت! كان يشعر بتعب كثير، وجسده يطالب بالتراب. هو أيضاً كان يرغب في الموت، ولكن من دون ألم، ولا معاناة له وللغير.

كان قد ذهب لزيارة فيلو غازوجينيا عندما كانت مريضة. وصلت فيلو بدورها إلى الفافيلا في الفترة نفسها التي وصل هو إليها. جاءت رفقة زوجها وكانت امرأة قوية ومناضلة. أما اليوم، فصارت كيساً من العظام فوق الحصى. امرأة لطيفة، لم تزعج أحداً في حياتها. عندما مات زوجها، لم تبحث عن رجل آخر، فكرّست نفسها لابنتها وحفيدتها.

كانت خطة هدم الفافيلا أمراً يصيبها بخوف شديد لدرجة أنها لم تكن تجرؤ حتى على الخوض في الموضوع. ومن سريرها، كانت تسمع صوت الجرّافات وتتساءل، عندما كانت لا تزال قادرة على الكلام:

- هل جاء الوحش ليأكل الناس؟

كل هؤلاء الأموات! والعم توتو لا يزال هنا، لكنه لم يعد صلباً كما كان، لأن الموت أصبح بداخله تقريباً.

كل هذه الآلام في صدره، كل تلك الحجارة الحادّة. أمر لا يطاق!...

ومرة أخرى، كان سالماً ووحيداً في الضفّة الأخرى للنهر. كانت ماريا الصغرى إلى جانبه لكنها لم تكن عجوزاً مثله. لا يزال أمامه ما يكفي من الوقت ليعتني بشيء من الأمل. هي تستطيع أن تحتمل رؤية كل شيء ينهار أمامها مرة أخرى. أما هو، فلم يعد قادراً على ذلك.

السقوطُ الوحيد الذي يمكن أن يتحمّله هو سقوط جسده وهو يتحرّر من ثقل الحياة.

علمت دينيا بموت

فيلو غازوجينيا عندما عادت إلى بيتها. كانت العجوز تسكن في الجهة الأخرى من الفافيلا. نادت على ابنيها -وحدهما الصغيران كانا هناك- وقدّمت لهما العقبة التي جلبتها من بيت السيدة. تركت منها شيئاً لابنها الأكبر. قدمت حلوى رقاقية إلى والدها، وملأت كأسه بالخمر. عبّ الأب المشلول ماء الحياة جرعة واحدة، ثم مضغ بهدوء وتثاقل الرقاقية. قضمت ديتينيا شيئاً من «البريغاديرو»، فوجدت أن للحلوى مذاقاً مرّاً، رغم أنها عادة ما تكون حلوة جداً.

كان الحجر، داخل رافعة النهدين، يؤلم نهديها. خرجت دون أن تقول لوالدها شيئاً عن موت فيلو غازوجينيا. لقد كان على علم بذلك إلّا أنه كان أكثر سكراً من المعتاد.

وتملّكت ديتينيا رعشةٌ قوية. كانت خائفة جداً، ليس من المرأة الميتة، ولا من الموت. كانت خائفة من الحياة. ماذا سيكون مصيرها؟ أي حماقة ارتكبت؟ ماذا ستفعل بهذا الحجر؟ ما زال بإمكانها أن تعيده إلى السيدة لاورا. بإمكانها أن تذهب في الحال لترى سيدتها، تحكي لها عن كل شيء وتطلب منها العفو. وماذا عن فضيحتها؟ على أي، كانت تشعر بخجل شديد أمام السيدة لاورا... كانت سيدتها نظيفة للغاية، وهي متسخة للغاية... وفوق ذلك، سارقة!

دخلت ديتينيا إلى كوخ فيلو غازوجينيا، وجالت فيه بنظراتها، فتعرّفت إلى الفقر، رفيق دربها. كم صارت العجوز نحيفة! يصعب تعرُّفها. تذكّرت يوم كانت فيلو غازوجينيا تتمتع بصحّة جيدة. امرأة كدود وشريفة، تموت وهي على هذا الحال من الفقر! ومرة أخرى، شعرت بالمِشبك يؤلم نهدها. كانت تريد أن تنسى ذلك الحجر، وتلك الحماقة التي أقدمت عليها. نظرت ملياً إلى وجه العجوز فشعرت كأن الميّتة تنظر إلى الحلية المخبأة في رافعة نهديها. نهضت بسرعة. لا بدَّ أن كل من يسهرون على الميّتة يعلمون أنها سرقت مشبكاً من الحجر الكريم يكشط نهدها. انصرفت على عجل ومشت من دون وجهة. كانت الفافيلا واسعة جداً، متاهة من الأزقة. بعض الأزقة تصبّ في أزقة أخرى، وبعضها الآخر ينتهي إلى طريق مسدود. في هذه الأزقة الضيّقة، المتقاطعة والمتشعّبة، كانت الأخبار - أخبار الوفيات والزواج على وجه الخصوص - تنتشر بسرعة كالنار في الهشيم.

كانت بعض فتيات الفافيلا، اللواتي ما زلن عذارى، يمنين النفس بفارس الأحلام. وكانت هناك حفلات زواج، وأعراس، وفساتين

بيضاء، وباقات ورد تُلقى في الهواء. كانت هناك أكواخ من الخشب وصفائح من الحديد، يهيّئها الزوج لحبيبته بكل حبّ وعناية. وكانت هناك أحلام لا تلج الأكواخ، ولا تتحقق أبداً. كان ثمة الوهم، الذي يساعد على تحمّل الحياة.

كان المشبك يؤلم نهد ديتينيا. أرادت أن تزيله. لكن، أين ستضعه؟ كانت متعَبة، وترتعش كما لو أن بها حمّى. ماذا تفعل بالحلية؟ بحثت في ذاكرتها عمّن يمكن أن تعترف له بالحماقة التي ارتكبتها. أحد! تشعر أنها تائهة. لم تكن لها ولا صديقة واحدة، لا أحد تحكي له سرّها.

ثم تابعت سيرها. منذ وقت طويل لم تقم بجولة كهذه عبر الفافيلا. تذكرت شارع السيدة لاورا؛ شارع واسع ومحفوف بالأشجار. رأت زقاقاً صغيراً أمامها فولجته. في عمقه اصطدمت بركام من الأزبال. وهناك كان ينتهي الزقاق. ومرة أخرى، شعرت بذلك المذاق المرّ في فمها، الذي يسيل لعابها. نظرت ديتينيا إلى ركام الأزبال، شعرت بتقزّز من ذاتها وانفجرت منتحِبة.

كان جسد ديتينيا محطّماً.

قطعت الفافيلا في كل الاتجاهات: زقاق المؤخّرة، زقاق العرّابة، زقاق الأخوين، زقاق الماریاتين، زقاق الروح المعذبة، زقاق العشاق، زقاق

العم توتو، زقاق السيدة تاسيلا، زقاق الأخوات كويكاس، زقاق ربّ السماء... كل هذه الأزقة، الأزقة، الأزقة... من كانوا يصادفون ديتينيا يسألونها إن كانت تبحث عن أبنائها. كانت ديتينيا تبحث عن مخرج.

كان الليل متأخّراً عندما عادت ديتينيا إلى بيتها. كان والدها وأبناؤها الثلاثة يغطون في النوم. رافعة النهدين تضايقها، الحجر يخدش نهدها، وصدرها يحترق ناراً. خافت أن تخلع ملابسها. ظنّت أن والدها وأبناءها يتظاهرون بالنوم ويراقبونها. أخذت المصباح الزيتي وخرجت نحو المرحاض. أطفأت هبةُ ريح الشعلة. عادت إلى الكوخ وأخذت علبة أعواد الثقاب. لم يبقَ فيها غير عود واحد. عادت إلى المرحاض، المصباح في يد وعود الثقاب في يد أخرى. شعرت برائحة الغائط والبول.

يا له من خراء! يا لها من حياة! كانت حياتها صعبة جداً منذ البداية وها قد جعلتها أكثر تعقيداً بعد أن سرقت مشبك السيدة لاورا. كانت الريح تتسلّل عبر الشقوق الخشبية. حكت عود الثاقب وأشعلت المصباح الزيتي. كانت الشعلة ترتعش. وضعت المصباح على الأرض. خلعت قميصها، فكّت بتثاقل رافعة نهديها والتقطت الحجر قبل أن يسقط. كان نهدها يحترق. رفعت المصباح ونظرت إلى نهدها. في مكان الحجر، كان لحمها ملتهباً يرشح. ومن اللحم الملتهب كان يدمي جرحٌ حيٌّ زادَ من الفزع الذي كان ينتاب ديتينيا في تلك اللحظة.

لم تكن ديتينيا امرأة رعديدة. إنها تخشى الموت. لقد تعايشت معه في بطنها أثناء حملها الأخير. وكاد الإجهاض الذي لم ينجز على

أحسن وجه أن يكلّفها حياتها. في المستشفى، وفي قمة النزيف، تذكرت والدها المشلول، وأبناءها، وأختها. قالت مع نفسها: «إن متُّ، سيواصلون حياتهم». كان والدها، فوق كرسيه المتحرك، يرى انحطاطه، وموته الوشيك، فلا يخاف هو أيضاً.

عندما كان صغيراً، أصيب ابنها بالتهاب رئوي. وكان الأطباء يعلّقون أملاً قليلاً على علاجه. كانت ديتينيا حازمة. إن لم يكن من الموت بدّ، فقد كانت ترجو أن يكون موتاً سريعاً. لكن الطفل نجا من الموت، لحسن الحظ.

لم تكن ديتينيا امرأة رعديدة، لكنها في ذلك المساء، وهي ترى نهدها المخدوش، والمشبك في يدها وظلّ المصباح الزيتي يرتعش على حائط المرحاض، تملّكها خوف مرعب. ورائحة المرحاض الملحّة. يا لها من زلّة ارتكبت! والشرطة؟ عندما ستكتشف السيدة لاورا أن مشبكها قد اختفى ستبلغُ بها الشرطة. وأبناؤها؟ ماذا سيكون مصيرهم؟ قريباً، سوف يصبح بيتو رجلاً. ووالدها؟ وأختها؟ كانوا فقراء، معدمين، لكن لم يكن قط أي لصّ ضمن أفراد العائلة. ما العمل؟ نهدها، المشبك... كان دبوس المشبك قد مزّق لحمها. وكل شيء صار يؤلمها: نهدها، رأسها، ومَنخراها اللذان أزكمتهما رائحة المرحاض. وصعدت الرائحة حتى بلغت روحها. كان ظلّ المصباح الزيتي يلقي بمزيج بريء من الظلال والأضواء على الحائط ذي الأخشاب المنفصلة. فجأة، أضاءت الشعلة عمق المرحاض. وفي ومضة، رأت ديتينيا الغائط. وفي ومضة أخرى أسرع من سابقتها، رأت

المشبك، والحجر الأخضر الصقيل كأنه مرآة ناعمة، ثم اختفى وسط القذارة.

مع طلوع النهار الموالي، كانت ديتينيا ترتعش من الحمّى ونهدُها يهتزّ بوخزات عنيفة. يستحيل أن تشتغل. تردّدت في أن تبعث بيتو ليحمل رسالة إلى السيدة لاورا، ثم تخلّت عن الأمر. لزمت الفراش. ومرّ اليوم طويلاً بشكل يائس. وكانت تظن أنها تسمع الشرطة عند أدنى صوت.

وبعد ذلك اليوم، كانت أكثر إحباطاً وانتفخ نهدها. لم تبرح المرارة فمها. ظلّت مستلقية في الفراش. استيقظ بيتو وسأل أمه ما بها، فاتهمت التعب. نظر إليها بيتو بحنان. نهض وحضّر القهوة. شعرت ديتينيا بالدعم، ورشفت المشروب الساخن جرعات صغيرة من القدح. سيعيش ابنها حياة كريمة، حياة رجل! كيف ذلك؟ كادت تستجمع شجاعتها. بيد أنها شعرت بوخز يؤلم نهدها. فتذكّرت الحجر الأخضر، صقيلاً كأنه مرآة، يبدو ناعماً وهو ينغمس في الغائط... استلقت ثانية، وأغمضت عينيها ثم فكرت: «إن كان لا بدَّ أن تأتي الشرطة، فلتأتِ!».

لم تعد ديتينيا مرة أخرى إلى بيت السيدة لاورا قط.

فَقَدَ والدُ ديتينيا، المشلول والسكّير، مفهوم الزمن. ابتعد عن الحياة، فلم يعد يدرك أي شيء ولا يميّز العادي من غير العادي. لكن أبناء ديتينيا لم يكونوا مثله: لماذا لا تعود إلى عملها؟ نعم ستعود، بعد بضعة أيام. «أريد فقط أن أرتاح قليلاً».

وفي اليوم الخامس، انفجرت القنبلة. انفجر الألم، والخجل، داخل صدر ديتينيا وخارجه. داهمت الشرطة الفافيلا بحثاً عن خادمة محتالة تدعى ديتينيا، تسكن مع أب مشلول، وأخت، وثلاثة أبناء. كانت سيدتها تعرف أنها تسكن هنا، لكنها لا تعرف العنوان بالضبط. كان كل من سألهم رجال الشرطة، وقد تعوّدوا على مفاجآت الحياة، يؤكدون أنهم لا يعرفون هذا الشخص. فتّش رجال الشرطة عدة أزقة. في زقاق «جواو الأقطع» وجدوا صبياً. سألوه إن كان يعرف ديتينيا.

- نعم، أعرفها! إنها أمي.

اقترب رجال الشرطة بسرعة من الصبي الأسود، أمسكوا به وأمروه:

- سوف ترافقنا إلى بيتكم، وإلّا اقتدناك إلى السجن!

في المخفر، كانت ديتينيا تسمع بعض المساجين يصيحون. «هل يصيحون ليعترفوا بجرائمهم؟»، تساءلت.

عندما سألها رجال الشرطة إن سرقت الحجر، وماذا صنعت به، أنكرت ديتينيا الأمر، وأقسمت أنها لم تسرقه. لكنهم ظلوا يلحّون، ويعيدون طرح السؤال مرات عديدة حتى اعترفت ديتينيا في النهاية، وقالت:

- نعم! نعم! لقد ألقيت بالحجر في الخراء، إن كنتم تريدون معرفة ذلك.

- في الخراء؟! أي خراء، أيتها المرأة؟

ثم لاذت ديتينيا بالصمت ولم تفتح فمها، رغم كل ما قاموا به، ورغم كل ما هدّدوها بفعله.

- هل تعرفين ما الذي سنقوم به؟ سنذهب إلى الفافيلا، نفتّش كوخك، ونقلب هذا الخراء كي نعثر على مشبك سيدتك. إننا لا نصدق حكايتك. كيف ترمين المشبك في بئر المرحاض؟ لا بدَّ أنك قد أعطيت المشبك إلى أحدهم. أيتها السارقة! أيتها الخادمة المحتالة! اشتغلت عاماً بكامله تقريباً لدى سيدة لتقومي بهذه الخدعة هكذا!

شعرت ديتينيا أنها محاصرة.

- لا، يا سيدي، أنا لست خادمة محتالة، كلا.

لمدة ثلاثة أيام، صعد رجال الشرطة إلى الفافيلا يحملون رفوشاً وحفروا بئر المرحاض بحثاً عن الحلية. كانوا يضعون مناديل على أنوفهم ليقوا أنفسهم من الروائح، ويرمون الغائط في الهواء، وعلى الجوانب. انتشرت الروائح في الأزقة المجاورة. ظلّت ديتينيا واقفة، ومجبرة على متابعة كل أطوار العملية. كانت الدموع تنهمر على خديها. وأغلق أبناؤها على أنفسهم في البيت، مفزوعين. لم تكن الأخت تونينيا قد عادت. كان الوالد المشلول ينادي ديتينيا، ويتباكى مطالباً بماء الحياة.

قلّبوا بئر المرحاض عن آخره. وعلى جوانبه، تراكمت أكوام من الغائط. تخلّى رجال الشرطة عن مسعاهم. لا أحد يعرف إن كانوا قد وجدوا الحلية أم لا. اقتادوا ديتينيا. وفي صدر بيتو، ابنها البكر، كان الحقد يكبر...

كبر بيتو فجأة وبشكلٍ عنيف. كان شيئاً مدهشاً رؤية ذلك الشاب، الذي كان صبياً في الأمس القريب، وقد صار بالغاً بين عشية وضحاها. حتى ملامح وجهه كبرت. أصبح بيتو مختلفاً منذ ذلك اليوم الذي اقتاد فيه رجال الشرطة ديتينيا. في اليوم الموالي، نهض باكراً، وهو لا يزال تحت صدمة الأحداث، ثم أخذ الرفش، وفي صمت أعاد بسرعة كل شيء إلى بئر المرحاض ورمى فوقه الجير الطبيعي.

كان جدُّه يهذي ويتباكى، مطالباً بخمرته. وهو يقلّد أمه، ملأ بيتو قدح جده. نظّف الكوخ بسرعة وسخّن الأكل فوق الموقد. كان الصغيران يطيعانه دون كلام ويرتبان كل شيء.

عبّر كل من كانوا يعرفون ديتينيا عن أسفهم. ما الذي حصل لها؟ قد تبدو أحياناً متعجرفة، لكنها كانت دائماً امرأة كدوداً. ثمة شيء خاطئ. خادمة محتالة، هذا ما قالوه عنها. هل سرقت الحلية فعلاً؟ ولماذا لزمت الصمت، وبقيت واقفة أمام رجال الشرطة وهم

يقلبون بئر المرحاض؟ وحتى لو أخذت الحلية، فإنها لم تكن خادمة محتالة، سارقة. كان هذا الأمر كذباً.

كان الكثير من أهل الفافيلا أصحاب قلوب طيبة. كان لا بدَّ من تقديم المساعدة لعائلة ديتينيا.

أغلق بونـدادي بيت فيلو غازوجينيا، ذهب إلى بقالة سو لاديسلاو، أخذ حمّاماً، غيّر ملابسه وتوجّه ليساعد بيتو. غسلا معاً العجوز، ونظّفا البيت، والملابس، حتى تستمر الحياة في محيط أكثر نظافة. فزال الإحساس بالوحدة عن بيتو، وكان مُمتنّاً لبونـدادي.

عاد رجال الشرطة عدة مرات ليستجوبوا الصبي. كان بيتو خائفاً، كان بيتو يكرههم. حركاتهم تشي بأنهم يريدون اقتياده. لكن الجيران غالباً ما كانوا يفتعلون الأعذار حتى لا يتركوه لوحده: «بيتو، هل عاد نيكو من المدرسة؟»، «بيتو، أخبر زي أنني أريد أن أقول له شيئاً!»، «بيتو، جئتُ لأقوم بتنظيف جدك!».

وبوجوه مغتاظة، يتحسّس رجال الشرطة أسلحتهم ويعودون أدراجهم. وفي قلوب أهل الفافيلا كانت الطيبوبة تفسح مكاناً للحقد ضدّ الشرطة.

بدأت الجرّافات تحتلّ فضاء أكبر فأكبر، ومزيداً من البقع. اقتلعت صنبورين أو ثلاثة صنابير عمومية: صنبور الزقاق الكبير، صنبور زقاق الأب جواو، وصنبور الزقاق المُظلم. اضطر السكان للتزوّد بالماء في مكان آخر، لكن ندرة الماء أخذت تثير النزاعات. كانت الغسّالات وأكثر الناس تنظيماً يقدّمون بعض القطع النقدية للأطفال كي يذهبوا ويملؤوا لهم القِرَب. هكذا وجد بيتو لنفسه

عملاً، واكتسب عديداً من الزبائن والأصدقاء. كما ربح صداقة ماريا الصغرى.

مع أولى تباشير الفجر الذي ينشر بياضه على الفافيلا، كانت النافورة العليا تعرف حركة دؤوبة. من لديهم ملابس كثيرة للغسل أو مزيد من القِرَب للملأ عليهم أن يأتوا قبل الآخرين. فتضيء أولى أشعة الشمس الوجوه النعسانة. ويبدأ يوم جديد.

كانت ماريا الصغرى تمرُّ بمرحلة من البانزو الشديد. كل شيء يُحزنها: الماضي والحاضر، والأحداث التي عانتها أو سمعت بها. كان قلب الطفلة السوداء مغموماً. وعليها أن تحبس دموعها. ترسم بداية ابتسامة على عيونها المبلّلة. متى سينتهي كل هذا؟ وكيف؟ كانت الفافيلا حزينة جداً، والحياة يائسة، فلماذ نتعلق بها إلى هذا الحدّ؟

ظهرت فراغات واسعة في الفافيلا، وأصبحت مناطق بكاملها من دون أكواخ، كما اختفت عدة أزقة.

وكان الألم واليأس هما اللذان جمعا بيتو وماريا الصغرى. في كثير من الأحيان، لا يقولان شيئاً. يضعان القِرَب في الصف، ويجلسان جنباً إلى جنب هادئَين، صامتَين. وذات صباح من تلك الصباحات، وبينما هما ينتظران دورهما، والشمس لا تضيء وجههما بعد، اعترف بيتو، ورأسه مطأطأ، لماريا الصغرى بسرّ أمه.

هي من أخذت الحجر الأخضر الناعم الذي كان يبدو صقيلاً للغاية.

في الفافيلا على قدم وساق. كان الوحش يصعد وينزل، يأتي ويذهب. الضجيج لا يطاق طوال اليوم. المنحدرات، ومجاري السيول، والأكواخ، كل شيء كان يُقلّب تقليباً، ثم يُدفن ويُسوّى في الحين.

وسط الفافيلا، كانت هناك حفرة طبيعية واسعة تكبر دائماً مع حلول موسم الأمطار بسبب انجرافات التربة. كانوا يطلقون على ذلك المكان اسم «الفُوّهة». هناك كان يسقط السكارى والأطفال الشاردون. لم تسجّل هناك أية حالة وفاة، لكن المكان، فعلاً، شهد كسر العديد من الأعناق، والسيقان، والأذرع. كلما اختفى طفل من الفافيلا، إن كان يسكن بجوار ذلك الثقب أو أرسلوه في مهمة غير بعيدة، تظهر وجوه مفزوعة تطل على حافة الفوّهة، وتسيخ السمع علّها تلتقط صوتاً أو أنيناً يأتي من أحشائها. يخرج الرجال الشبّان الرشقاء بحثاً عن المختفين، وينزلون ويصعدون بسهولة عبر منحدرات الحفرة. أما من يسكنون بجوارها فيملؤونها بالقمامة. كانت الفوّهة من الأماكن الأخيرة التي اختفت من الفافيلا، بل كانت آخر ما اختفى منها. كانت الفوّهة تتحدى العالَم.

هدير المحركات الذي يصمُّ الآذان. أصبح تردُّدنا على بقالة سو لاديسلاو نادراً شيئاً فشيئاً، لأنه كي نصل إليها كان علينا أن نعبر منطقة من الفافيلا يهيمن عليها «الوحش» الذي صار يحرث، يخرّب كل شيء ويدمّر الجميع.

يا إلهي! ماذا يحدث لحياته؟ حدث كل شيء ولم يحدث أي شيء. واليوم، صار جسده يطالب بالتراب، وكان فارغاً جداً. كان يظن أن الموت والحياة يختلفان. لكن، لا، إنهما الشيء نفسه. كل شيء بطيء وسريع، كل شيء متشابك. هناك أشياء عديدة في الحياة لا نفهمها، بل كل شيء تقريباً. هل يكون كل شيء، حتى قبل أن نولد، مكتوباً، جاهزاً لنعيشه؟ كان توتو قد سئم من هذه الحياة الجاهزة التي لا يستطيع أن يغيّر فيها أي شيء.

لقد كان على الدوام رجلاً لا يستسلم، ودائماً يواسي الآلام، ويحتفظ بها مخبأة في صدره دون أن يتركها أبداً لتصعد إلى عينيه وتنهمر فوق وجهه. لم يسبق قط للعم توتو أن بكى. منذ صغره، تعلم أن الرجال لا يبكون وآمن بذلك. حتى عندما أخذ منه النهر في دوامته أعزّ ما لديه، حتى عندما شعر أنه سالِم ووحيد يوم ماتت تورينا السوداء، زوجته الثانية، حتى عندما فقد، سنوات بعد ذلك، ابنته وابنه، لم يبلّل أي ماء أبداً وجه العم توتو، وإن كان قلبه يغرق.

شقّت دموع الألم أخاديد في وجه العم توتو لأول مرة عندما التحمت جرافات - لُعَب الأطفال - الرجال العاطلين في عناق مميت. بعد هذا الحادث، أخذ العم توتو يبكي دائماً. أحياناً في صمت، وأحياناً ينتحب.

كان مؤثراً منظر ذلك الجسد العجوز منكمشاً على نفسه، برأسه الأبيض تماماً، وهو يغطّي وجهه بيديه ويبكي. كانت ماريا الصغرى تدنو منه لتواسيه، وتضع ذراعيها من حوله. ودون خجل، ولا كبرياء، دون حرج من الآخرين، كانا يطلقان العنان لدموعهما. كان العم توتو يبكي عن كل الآلام المتراكمة، ويسترسل في نحيب متوتر ويائس. لطالما حبس الآلام في صدره. فكانت تنبجس الآن كأنها دم ينزف نزيفاً.

وبصوت متقطع بالنحيب، حكى العم توتو لماريا الصغرى موت تونا السوداء.

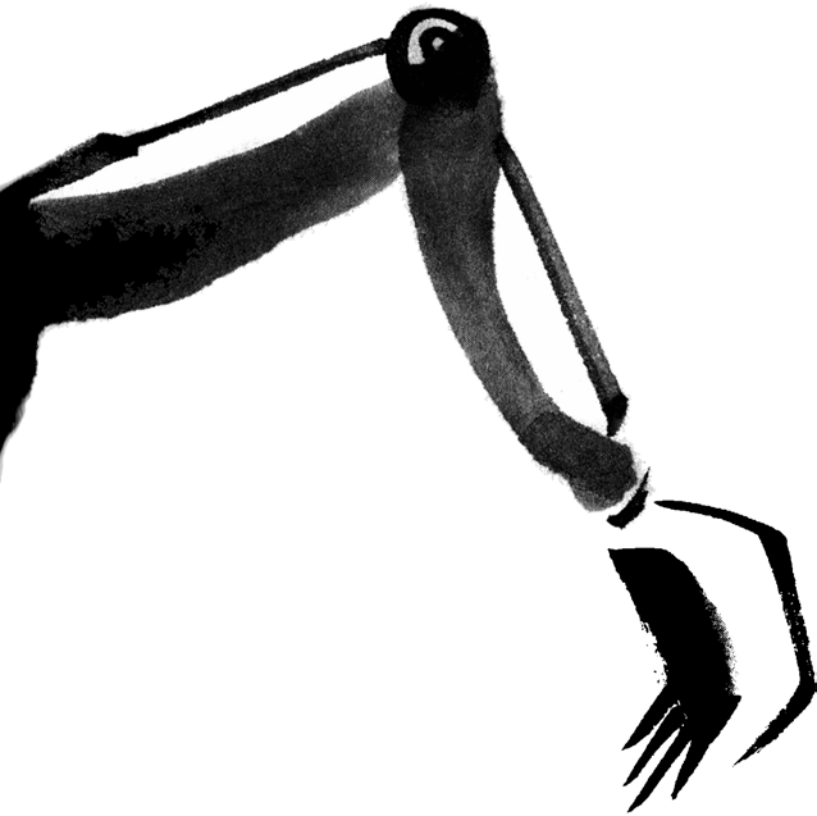

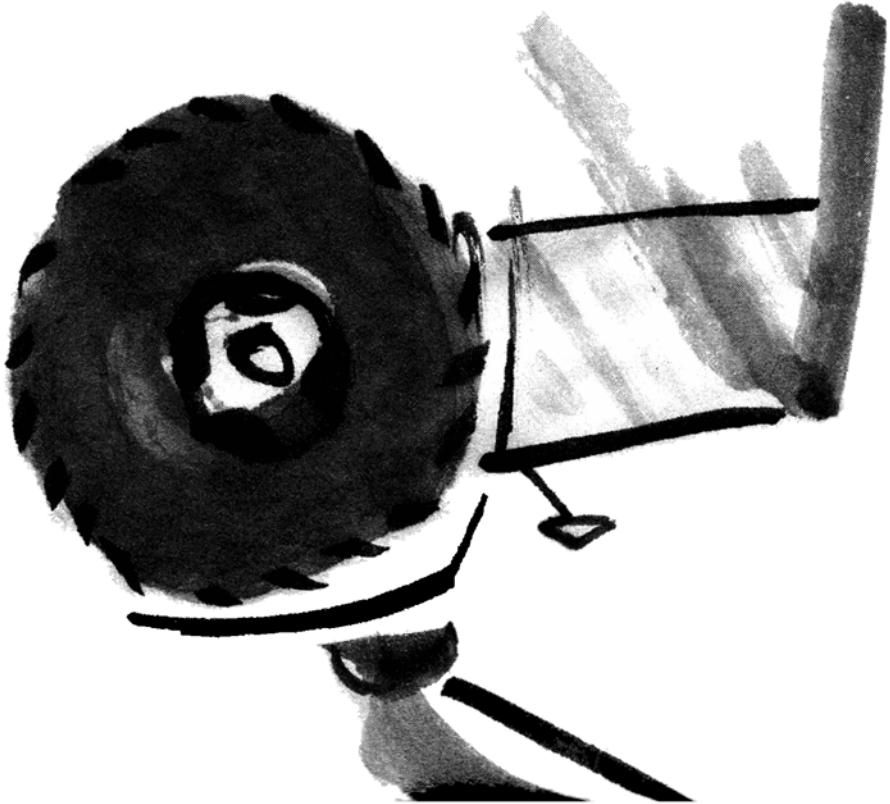

فيفرقعان بطن توينا السوداء. يكبران فلا تعرف عزيزتي توينا أين تضع ذلك البطن الضخم. كانت منتفخة من رأسها إلى أخمص قدميها ولا تتحرك إلّا إذا استندت إلى الحيطان. لم تعد تستطيع الجلوس على السرير. تستلقي، فتبدو كأنها جبل. أذكر أنني رأيتُ صورة لها، ذات مرة. كانت جبلاً بفوّهة واسعة، في الوسط، عالياً جداً، ومنها ينبعث دخان. حساء ساخن ينهرق فوق كل جانب.

ولما رأيتُ توينا عاجزة عن أن تقف وتتحمّل جسدها، ذهبتُ لأبحث عن الجدة ريتا، التي كانت وقتها لا تزال تمارس التوليد. ما إن دخلت إلى الغرفة ورأت ذلك البطن-الجبل حتى انفجرت ضاحكة. كانت تشدّ جنبيها وتضحك بصوت مرتفع! هرعتُ نحو توينا السوداء لأنني رأيتُ بطنها يتحرك. كان صوتُ الجدة ريتا قد اخترق الفضاء وسقط في آذان الرضيعَين، داخل البطن.

لمست الجدة ريتا بطن توينا السوداء وقالت برصانة:

- إنهما اثنان.

أجابت توينا السوداء إنها كانت تعرف ذلك. أما أنا، ففزعتُ وقلتُ مع نفسي: «يا إلهي، هناك اثنان!». قامت توينا السوداء بمجهود كبير وجلست على السرير. أخذتُ يديها.

- توتو، سوف تستمر لوحدك. سوق تربي أبناءك. أنا سأبقى، سأبقى...

بدأ رأسي يدور، لأنها أخبرتني بذلك للمرة الثانية. قالت ذلك بصوت واثق لدرجة أن الخوف غمرني. تذكرت حركاتها، وكلامها الذي كانت فيه نبرة وداع في الأيام الأخيرة. تذكرتُ النهر وهو يحمل كل شيء في دوّامته. ومن جديد، رأيتُني في الجهة الأخرى، في الضفة الأخرى للنهر، من دون أحسن ما لديّ.

نادت عليّ الجدة ريتا إلى ركن من البيت ونصحتني أن آخذ توينا السوداء إلى المستشفى. كانت ترى أن توليدها هنا، لوحدها، ينطوي على شيء من الخطر. «إن توينا السوداء لها بطنان، وهي ليست على أحسن حال. لا بدَّ أن تذهب إلى المستشفى».

رفضت توينا: لم تزر طبيباً في حياتها، ولم تبتلع قط أي دواء من أدوية الصيدلية. لم تكن مريضة قط، فلماذا يجب أن تذهب إلى المستشفى فقط لأنها تلد؟ ينبغي أن يأخذوها بالقوة، ومع ذلك قد تتعلق بالسرير وكل ما تجده في طريقها. لن تخرج من بيتها سوى ميّتة.

ألحّت الجدة ريتا، وكرّرت أن حالتها تدعو للقلق خصوصاً أن هناك اثنين. فردّت توينا السوداء أنها لم ترَ قط امرأة تموت بين يدَي الجدة ريتا، ولا رضيعاً يموت بين يديها. ثم إن الجدة ريتا تعرف كل شيء، وخِبرتُها تفوق خبرة الكثير من الأطباء! وأنها هي، توينا السوداء، لا تخاف الموت. سوف يعتني توتو بالتوأمَين. ما كانت تريده هو أن تتزوّج، وقد تزوّجت بالفعل من الشاب توتو. كان سخي الضحك، والابتسامة، وأشياء أخرى. كانت تريد أطفالاً. ثلاثة عشرة. وتعلم أنها لن يكون لها كل هذا العدد. تأخّرت كثيراً قبل أن تحمل،

هذا صحيح، لكنها سوف تضع اثنين دفعة واحدة. وماذا لو ماتت؟ سوف تموت، إنها تعرف ذلك. كان بودّها أن تعيش لتربّي أطفالها، لكن هذا الأمر لا أهمية له في النهاية. قريباً جداً، سيجد توتو لنفسه امرأة تحبه وتحب طفليه. الأمر محسوم: لن تذهب إلى المستشفى.

استلقت، فتحرّك الجبل مرة أخرى. أخذت توينا السوداء يدَها، وضغطت عليها، ثم أسرّت لي أنني كنتُ طيّباً معها. بعد ذلك، أمرتني بصوت حازم أن أشعل النار كي أحضر لها قهوة قوية، وأسخّن الماء لغسل الرضيعَين.

وأنا أغادر الغرفة، سمعتُها تقول آخر كلماتها:

- ريتا، إنني أفقد المياه، بعد ذلك سيخرج الرضيعان، ثم يتلوهما الدم...

قفز الرضيعان يصيحان مثل جديَين. بنت وولد: ماريا وجوزي، أسميتُهما ماريا وزويم. كانت ماريا صورة طبق الأصل لأمها.

لم يتوقف الدم عن النزيف. بعد بضع ساعات عن الوضع، أخذت توينا السوداء التوأمَين بين ذراعيها، وظلّت مستلقية، لأنها لا تقوى على الجلوس. وأخذت ترضع تارة هذا الرضيع، وتارة الآخر. رسمت ابتسامة خفيفة على محياها. كانت الجدة ريتا تقوم بكل ما في وسعها لتوقف النزيف. فكرّرتُ لعزيزتي توينا أنه لا حلّ غير المستشفى، وأنها الوسيلة الوحيدة لعلاجها. فكانت تحرك رأسها، وتقول لا، لا. ذهبت الجدة ريتا تبحث عن سيارة إسعاف. لكن، عندما وصلت الجدة ريتا إلى المستشفى كان عليها أن تنتظر، وتنتظر، وتنتظر...

لم يبقَ كثير من الوقت أمام توينا السوداء. لم يتوقف الدم عن النزيف. الرضيعان يبكيان من الجوع، والبرد، ويطالبان بدفئ أمهما. كانت توينا السوداء في غاية الهدوء، كما لو أن كل شيء كان محسوماً. أما أنا، فكنتُ أتصبّب عرقاً من شدة القلق وأشعر بثقل كبير يجثم فوق صدري. كنتُ أعرف بشكلٍ غامض ماذا سيقع».

عندما وصلت الجدة ريتا مع سيارة الإسعاف، لم تعد توينا السوداء في حاجة إلى أي شيء. لكن توتو، تيتا وزويم، في وحدتهم الكبيرة، كانوا في حاجة إلى كل شيء.

ومن جديد شعر توتو بالمذاق المرّ للشقاء. ومرة أخرى، كان سالماً ووحيداً.

كانت ماريا–دومينغاش
لا تملك الشيء الكثير أو لا تملك ما تصنعه بالحياة.

كانت في الستين من عمرها، وتعيش على المعاش الهزيل الذي تركه زوجها البنّاء. تسكن في كوخ بسيط ونظيف في الفافيلا، وتغسل الملابس للسيدات. لكن، عندما توفي زوجها، أصبح الكوخ واسعاً مثل الفراغ الذي يسكن قلبها. كان الكوخ المكوّن من غرفتَين يبدو لها كأنه قصر من آلاف الصالات. لا تجد زوجها في أي مكان، رغم أنها تشعر بحضوره في كل مكان. هكذا غرقت ماريا–دومينغاش

المرحة في حزن عميق. مرضت وكادت تموت لأنها لا تعرف ماذا عليها أن تكون.

عندما رأت ماريا-دومينغاش توت الأرمل محبطاً، وحزيناً جداً، لا يعرف ما يفعل برضيعَيه، اكتشفت ما الذي تستطيع أن تكونه. ستكون هي أُمّ وجدّة هذين الطفلين اللذين لم ترزق بهما. فتبنّى قلبُها كلاً من تيتا وزويم.

كان رأس ماريا الصغرى يطنُّ ويؤلمها بينما كان العم توتو يحكي لها عن وفاة تورينا السوداء. كما لو أن كل شيء سينفجر بداخلها. نظرت إلى العم توتو فوجدته أعزل. كان منظره حزيناً وهو جالس على مقعده الخشبي، مطأطأ الرأس، عيناه شبه مغمضتَين شاردتَين، وغليونه مطفأ في زاوية من فمه. أم ترى أن الموت كان هو حصنه الوحيد؟

نهضت السوداء الصغيرة، ونظرت إليه بتمعّن. لم يحرّك ساكناً. كان الوقت متأخّراً، والهواء ثقيل لا حركة فيه. الشمس تكسو الجبال بألوان ذهبية هناك بعيداً. كان العم توتو، مطأطأ الرأس، يبدو أكثر شيخوخة.

كانت ماريا الصغرى تشعر أنه لا بدَّ من تغيير الحياة، لكن كيف ذلك؟ خرجت، في هدوء يائس، ومشت دون وجهة عبر أزقة

الفافيلا. كانت تعرف وجهتها بعينَين مغمضتَين عبر عدة أزقة، لكن بعضها كانت لا تزال شيئاً ما مجهولة بالنسبة إليها. لم تكن ماما جوانا تسمح لأبنائها بتجاوز المنطقة التي يقطنونها. كانت تخشى أن يتيهوا، بعيداً عن البيت. لكن ماريا الصغرى كانت توسّع الدائرة قليلاً كل مرة. كانت تحب أمها وتطيعها، لكن يستحيل ألّا نكتشف العالَم.

ذهبت إلى المنطقة التي تشتغل فيها الجرّافات الثقيلة، الملتصقة بالأرض وهي تنتظر العمل في اليوم الموالي. لقد هُدّم جزء كبير من الفافيلا. تذكرت كل من كانوا يسكنون هنا. كم من العائلات غادرت! هل كانوا سعداء؟ بدأ موعد دوري كرة القدم في الفافيلا يقترب ولا أحد يتحدث عنه. فهل سيقام الدوري؟ الكثير من الأشخاص لم يستجيبوا للدعوة: من ذهبوا ومن رحلوا إلى الأبد. ومن كانوا لا يزالون هناك محبطين، غير مبالين بأي شيء. من سيأتي بالسامبا هذه السنة، ومن سيعزف الكويكا، والدف، والطبل؟ على أي، لن يقوم بذلك الرجال الصغار المعطلون، الذين سحقتهم الجرّافات-اللُّعب.

فكرت ماريا الصغرى: «يستحيل أن ينتهي كل شيء هكذا. لا أعرف كيف، ولكن علينا أن نبتكر لأنفسنا جميعاً حياة جديدة».

في النهاية، تمكّن أليريو الأسود من تحديد مكان تونينيا، أخت ديتينيا. سأل الناس يميناً وشمالاً، فعلم أنها تمارس البغاء في حيّ سيّئ السمعة. كان لا بدَّ أن

يتحدث معها. منذ أن سجنوا ديتينيا لم يعد والدها المشلول يتوصّل بمعاشه. لم يكن أليريو الأسود، ولا بونـدادي، ولا الجدة ريتا يعرفون الكلل. كانوا يقولون إن حياة كل واحد منا يمكن أن تكون مختلفة. ويظنون أنه رغم كل ما يمكن أن يقع، يمكن لأشياء كثيرة أن تتغيّر. ومن يقوم بالتغيير؟ من يعانون. لأن من يُزيح الحجر ليس هو من يخنق الآخر، بل من يختنق بالحجر.

كانت كل حركات أليريو الأسود وسكناته تعكس القلق. ليس قلق اليائس، بل قلق من يعرف أن الطريق طويل وأن الحياة لا تنتظر.

شعر الجميع بالتهديد، أو بالأحرى بمواجهة هدم الفافيلا، فأصيبوا بالإحباط والفتور. كانت أحاسيس متضاربة تخنق ماريا الصغرى. وكان موقف الجدة ريتا، وبونـدادي، وأليريو الأسود تبيِّن لها أنها ينبغي مواصلة الإصرار. كانت تريد أن تواصل السير، وتجد مخرجاً، لكنها لا تعرف كيف! تعرف، بحكم تجربتها الشخصية، أن الفقر والبؤس يتركزان في الفافيلا. كانت ترى العلاقة الوثيقة بين فافيلا الحاضر وزقاق السينزالا سابقاً، لكنها كانت حزينة وهي ترى، في الآونة الأخيرة، أن الكراهية تتفوّق على الحب. كراهية برزت وسط أشخاص كانوا يحبون بعضهم من قبل؛ كراهية موجّهة ضدّ الشخص الخاطئ.

الرجل الذي يضرب زوجته التي تطالبه بمزيد من المال لاقتناء المشتريات. أوَليس، في نهاية المطاف، من حقّ هذا الرجل الذي يشتغل كثيراً أن يشرب بضع جرعات من ماء الحياة عند نهاية الأسبوع؟

الأم التي تضرب ابنها بعصبية. لا تقل لي إن زي قد أنفق كل ما لديه في اقتناء الحلوى والمثلجات بدل أن يشتري الحليب عند تونينيو!...

كراهية توتوكا، ذلك الصبي الذي يقدم خدمات ذراعيه وناقلته في السوق... ذات يوم، لبّى نداء الغواية، فسرق تفاحة من فوق طاولة البيع. رآه البائع الجوّال فانهال عليه بالشتائم: «أوه، أيها اللص! اذهب لتشتغل أيها المتسكّع!». خذ هذه، وهذه، وهذه. هرب توتوكا وصعد بسرعة عبر المنحدر. «أنا لست لصاً. إنني أشتغل وأُأجّر ناقلتي في السوق!». كانت الكراهية تنفخ قلب الفتى. وعندما رأى خورخي، ابن مارتا -شابّ مثله، يرافقه في اللعب، ويشارك معه في مسابقات الطيّارات، والدحل، رفيقه- فجّر توتوكا غضبه. «أين هو دحلي؟ قلت لي إنك ستسلمني منه قطعاً أخرى ولم تعطني شيئاً! أيها اللص، أيها المتسكّع!»، خذ هذه، وهذه، وهذه... لم يكن خورخي يتوقع ذلك. في اليوم نفسه، وقبل أن ينزل إلى السوق، كان هو وتوتوكا قد لعبا معاً. وأمام أنف خورخي الدامي، شعر توتوكا بفرح غريب. ثم قضم التفاحة بعضّة حادّة. نهض خورخي، ابن مارتا، ونظر إلى من كان صديقه قبل قليل، فشعر بألم أقوى من ألم تلك الضربات: ألم الصداقة التي تنتهي. فأدخل يده في جيبه وقدّم بتثاقل كل دحله إلى توتوكا -كل قطع دحله أكثر ممّا كان عليه أن يعيد له- وذهب. مشى توتوكا قليلاً بعض الشيء، توقف ثم رمى كل الدحل بعيداً. دحله وتلك التي ربحها للتو.

ولم يرَ أحد قط خورخي وتوتوكا معاً بعد ذلك.

عندما تمطر السماء. مطر خارج الأكواخ، ومطر داخل الأكواخ، قطرات تترك بقعاً صفراء في الملابس. قطرات تنزل وسخة من السطوح. كان على الجميع أن يظلوا بالداخل ولا يخرجوا أبداً. على الأقل، عندما تسطع الشمس ويكون الجو جميلاً، كان الأطفال يخرجون. لكن حين تمطر، يظل الجميع ملتصقين كالذباب. يكون الجو بارداً، بارداً جداً، ولا أحد يملك معطفاً. كان الأطفال يبتكرون كل الألعاب الممكنة والمتخيَّلة، فيتدافعون، ويتدافعون مرة أخرى، يصرخون، ويصيحون. المطر يقضي على كل أنواع الصبر، حتى صبر تلك الكائنات التي تملك قدراً كبيراً من الحب.

كانت ماما جوانا تخاف خوفاً طفولياً من العواصف. يكفي أن يلمع برق أو يهدر رعد لتلجأ إلى سريرها وتتمسك بأبنائها ثم تشرع في الصلاة. تحرق أغصاناً مباركة، تتلو صلاة «الملكة المنقذة»، وتتضرّع إلى القديسة باربارا راجية منها الرأفة وطالبة منها أن تهدئ المطر والريح.

وحين يستمر المطر، تسوء الأحوال. يصبح كل شيء رطباً، عفناً، مُتربأً، متوحّلاً. فلا يجف غسيلُ السيدات، ويتطلّب العمل مجهوداً يفوق بكثير المردود الضئيل! أحياناً، تظهر الشمس فتجلب معها بعض الأمل من السماء. تركض النساء لتنشر الملابس فوق الأسلاك بين زخّة وأخرى. تتسخ الملابس بالسطول القابعة في ركن الكوخ، فيتعيّن غسلها من جديد. تثور ثائرة ماما جوانا، فتتلوّى يداها،

وتصبح عيناها، ووجهها وشفتاها، اللتان لا تبتسمان أبداً، أكثر حزناً. يشعر الأطفال بالجوع فيبكون، وتفقد ماريا الصغرى رغبتها في الأكل، حتى في أيام وفرة الطعام نسبياً.

كانت ماما جوانا تعرف بعض الطقوس لجلب الشمس. كلما سنحت الفرصة، تذهب وراء المنزل وترسم على الأرض شمساً كبيرة لها ساقان طويلان. أحياناً، تستجيب الشمس لدعواتها؛ وأحياناً، تخشى أن تتبلّل، فتظلُّ مختبئة.

تصمد الأكواخ بشجاعة أمام المطر المُلحّ إلى أن تنتفخ أسوارها فلا تستطيع أن تقاوم. تتشقق شيئاً فشيئاً أو تنهار فجأة. وحين نسمع ضجة مخنوقة، حادة، نسيخ السمع لنميّز الصيحات. أحياناً، يظل البعض تحت الأنقاض، وخاصة الشيوخ والأطفال. فيهرع الجيران رغم المطر، يحملون الرفوش، وقطع الخشب، وكل ما يجدونه لإنقاذ الناجين. كانت الأكواخ مبنية بالطين، والخشب، والقصدير، لذلك لا يكون هناك كثير من الأموات، نسجّل، من حين إلى آخر، حالة جرح خطيرة، لكن أهل الفافيلا غالباً ما كانوا يصابون فقط ببعض الخدوش. أسوأ ما في الأمر أن الناس لا يجدون مكاناً يلجأون إليه، أو بيتاً يأويهم. يستقبلهم بعض الجيران من المحسنين في أكواخهم، التي تأوي على الأقل خمسة أشخاص، وعائلة أخرى، أو ربما عائلتين، ويتقاسمون الجوع، والإزعاج والبؤس. ويستمرّ المطر غير مبالٍ، وتزداد حدّته.

خلال موسم الأمطار، ولمدة ثلاثة أشهر من المطر المتواصل، اضطرّ الوحش للتوقف عن العمل وغادر الفافيلا. في برد الليل،

مرتاحين ومفعمين بالأمل، كنا نحلم: وماذا لو لم يعد الوحش أبداً؟ من يدري لربما أصبحت الفافيلا في ملكنا؟ كانت تصلنا أخبار من غادروها: لم يكونوا سعداء. إذاً... لو أن خطة الهدم توقفت، ربما يعودون، رغم أنه لم تمضِ سوى سنة واحدة على رحيلهم... في قلب العم توتو، وماريا الصغرى، وبوندادي، وكثير من الأطفال، كان هذا الحلم الساذج يطنطن. شعاع من الضوء، شمس مفعمة بالأمل، أن تصبح يوماً هذه الأرض التي انغرست فيها حياتهم ملكاً لهم إلى الأبد.

كان موسم الأمطار يوشك على نهايته. كم كنا ننتظر، كل سنة، هذه اللحظة بشوق وترقُّب! لكن، هذه السنة، كنا نريد المطر، مزيداً من المطر، رغم الأكواخ المهدمة، والجوع، والبرد، والعفن الذي يفسد كل شيء، ويفسد الأشياء والناس. كان المطر اليومي يفسح المجال، من حين إلى آخر، لسماء زرقاء. وفي الأيام الهادئة، كانت العائلات التي سقطت أكواخُها تنزل عبر المنحدر لتبحث عن أشياء بسيطة تبني بها أكواخاً أخرى، لا تقل هشاشة عن السابقة. وتنشأ أجيال بكاملها وتكمل دورة حياتها متعوّدة على البؤس الذي تجعل منه علّة حياتها. بعد حادثة الجرافة، أصبح الصغير براندينو مشلولاً، وبدأ يمارس التسوُّل لصالح أُسرته التي تحسّنت ظروف عيشها.

لكن أليريو الأسود كان يردّد بإلحاح إن هذه ليست حياة. ويقول إن الكبار، والأقوياء، من كانوا في الجهة الأخرى، يريدون أن يكون كل من هم في جهتنا ضعفاء، سكارى، جائعين. بل يريدون ما هو أسوأ من ذلك: يريدون أن يسود الحقد بيننا، وأن نصبح أعداء لبعضنا البعض.

توقف المطر تماماً وعادت الشمس مثل تهديد. جاء ممثّلو الشركة المكلَّفة بهدم الفافيلا لزيارتنا يحملون معهم إشعاراً: من تهدمت أكواخهم في موسم الأمطار فلا داعي لإعادة بنائها. ذلك مضيعة للوقت. قريباً، سيتم ترحيلنا جميعاً.

كانت ماريا الكبرى تصغي إلى الصوت الباكي للعم توتو وتوافقه الرأي. إنها فعلاً مضيعة للوقت! مضيعة للوقت أن يعيدوا بناء الأكواخ المتهدمة. مضيعة للوقت أن يجمع أليريو الأسود أهل الفافيلا ويتوجّهوا إلى مقرّ شركة البناء ونشرح لهم مُعلّلاتنا. مضيعة للوقت أن تصل، يا عم توتو، سالماً ووحيداً إلى الضفة الأخرى للنهر. مضيعة للوقت، يا ماريا الكبرى، أن تهجري البادية التي ولدت فيها وتأتي إلى المدينة بحثاً عن حياة أفضل. مضيعة للوقت! نعم، كان كل شيء مضيعة للوقت! هل كانت حياته هو، وحياتها هي، وحياة جميع من سبقوهم، هل كان كل شيء حقاً مضيعة للوقت؟ لم يكن ذلك ممكناً!

تذكرت ماريا الكبرى جدها الذي كان يبكي بينما كانت هي تقفز كأنها جدي، وتذكرت أسباب ألم العجوز: الحنين القوي إلى ابنته أيّابا. ورأت في ذكرياتها أمها، مشلولة من الجانب الأيمن، ووالدها، لويس داسيرا المجنون. تذكرت الأرض التي ولدت فيها،

«جبال النباتات المتسلّقة». كانت حياتها مثل نبتة متسلّقة، لوتها الآلام! ثم نظرت إلى توتو، رفيقها، الذي صار أكثر فأكثر يأساً وأكثر فأكثر شيخوخة.

لا، إنها لن تستسلم. كان من الواجب عليها أن تستمرّ على قيد الحياة. كان هناك الأطفال، أطفال أخواتها وأطفال الآخرين. لا! يستحيل أن تكون الحياة هكذا، تكراراً مجنوناً! مغادرة الفافيلا، والعيش بعيداً... فافيلا أخرى، لماذا؟ فهل يا ترى يظهر مغزى الحياة لاحقاً؟

عندما وصلت ماريا الكبرى إلى الفافيلا، لم يكن المكان مأهولاً كما هو اليوم، وكانت الأكواخ متباعدة بعض الشيء. جاءت ماريا من البادية رفقة أختها جوانا، وأخيها تاتاو، وقدر قليل من المال وفّرته من عملها في الحقول. اشتروا هذا الكوخ بقطعة نقدية واحدة ثم انطلقوا في دروب الحياة. كان الشاب تاتاو يشتغل في كل شيء، مساعد بنّاء، مساعد طبّاخ، إلى أن التحق بالجيش. وسرعان ما اندلعت الحرب فجعل منها تاتاو علّة حياته. حارب ثم عاد إلى البيت. أحياناً، في أحلامه، كان يضرب بالرشاش. ويروي حكايات دامية لا تعجبُ ماريا الصغرى.

وجدت ماريا وجوانا في أفران وسطول وبيوت السيدات وسيلة للبقاء على قيد الحياة. تعوّدتا، شيئاً فشيئاً، على المدينة لكنهما كانتا تحنّان حنيناً قوياً إلى «جبال النباتات المتسلّقة»، إلى التراب، إلى أشجار الجوز، إلى الأنهار، إلى الحقول والحيوانات. كم كان كل شيء مختلفاً في المدينة! كانت ماريا تضحك في دواخلها. أما جوانا، فلا تضحك لا في دواخلها ولا في الخارج.

كانت ماريا سنداً دائماً لإخوتها وشاهداً مباشراً على كل آلام، كل أشكال تفاهم وعدم تفاهم أبناء جوانا، وعلى كل أهوائهم. أبناء ماما جوانا الذين كانت تحتفظ بهم في دواخلها، حتى بعد أن تلدهم... حاولت السيدات أن يقنعنها بأن تسلّم ابناً، أو ابنين، ولمَ لا كل أبنائها إلى سيدات يمكن أن يتكفّلن بتربيتهم. أو أن تسلّمهم إلى قاضي القاصرين. لا يمكن لماما جوانا أن تشتغل وتربي أطفالها! لكن ماما جوانا، بدعم من ماريا الكبرى، رفضت. «أطفالي ليسوا جراء لأسلّمهم!» فلا تفارق أبناءها. كنا نعاني من قلة الطعام، ونفتقد للفراش وظروف الراحة، لكن الحنان لم يكن ينقصنا أبداً. وفي أعماق قلبها، كان لماما جوانا مكان لكلّ واحد منا.

وهي تنظر إلى العم توتو، فتراه أعزل إلى هذا الحدّ، يرزح تحت ثقل السنين والآلام المتراكمة، تذكرت ماريا الكبرى الفترة التي عرفتهُ خلالها، قبل ثلاثين عاماً تقريباً. كان توتو في الستين من عمره، لكنه لا يزال حيوياً ومتيقّظاً. كان لا يزال يحتفظ بابتسامة سخية. ضحكاته تنبع من أعماق ذاته، من خبايا صدره، وتنفجر في حنجرته لتنتشر في كل جسده. ولم يعاني توأما توتو، تيتا وزويم، من

غياب الأم، لأن ماريا-دومينغاش ربتهما كما لو كانا ابنين وحفيدين. ترعرع التوأمان في بيت ماريا-دومينغاش. كان يحبان والدهما توتو، مثال الرجل الكدود، الذي يوفّر لهما الطعام، والحب، والسُّلطة، والتأديب. عندما تزوج توتو وماريا الكبرى، بقي زويم وتيتا يسكنان طبعاً في بيت العمة ماريا-دومينغاش التي كانت تحبهما. وبفضلها، لم يشعرا أبداً أنهما وحيدان، حتى بعد وفاة أمهما تونيا.

أما توتو، فوجد نفسه وحيداً، مثل طائر سقط من عشّه. أثناء جنازة تونيا السوداء، خطر على باله أموات آخرون، تذكّر ميكيلينا، زوجته الأولى وكاتيتا، ابنته الوحيدة العزيزة على قلبه، اللتان جرفتهما مياه النهر، ولم يظهر أثر لجسديهما. لحظتها، اختلطت عليه الأمور، فلم يعد يعرف إن كان يقوم بدفن ميكلينا، كاتيتا، أو تونينا... فكر في تيتا وزويم، فشعر بانقباض في صدره. ولمّا عاد من المقبرة، لم يعد التوأمان في بيته. كانت ماريا-دومينغاش قد تركت رسالة: كان الطفلان معها. تمدّد توتو فوق السرير الواسع، مذهولاً وحاقداً على الحياة. شعرَ بشيء من الارتياح. على الأقل، الأطفال بخير، وهذا أمر محسوم.

شعرت ماريا الكبرى بالغمّ وهي ترى توتو وتتذكر كل مصائب حياته. كان بؤس العجوز شيئاً تصعب رؤيته. تستطيع أن تكون إلى جانبه، تحدّثه، تصغي لحكاياته، لكنها تشعر أنه كان وحيداً. فتشعر بالقصور، والعجز عن مساعدته. ولم تكن تملك الشجاعة لتحدّثه عن الأمل لأن هذا الإحساس كان قد انطفأ بدواخلها.

يشتغل بَنّاء. في الورش، سأله ربّ العمل عن وثائقه، فتعذّر بأنها ضاعت منه. كان يخاف أن يقدّم له بطاقته المهنية. قد يرى رب العمل أنه كان عاملاً سابقاً في الميناء وأن بطاقته ليست مجدَّدة. كيف يشرح له الأمر؟ تخلّى عن وطيفة، لماذا؟ لقد حظيت الحركة، والإضراب، وثورة العمّال بتغطية كبيرة في وسائل الإعلام البرازيلية. وبالإضافة إلى إمكانية فقدان العمل، كان يتهدّده خطر التوقيف بتهمة التمرّد. لم يكن يخشى السجن، كلا! لم يسبق له أن سُجن... يعرف رفاقاً تعرّضوا للسجن. بعضهم اختفى. لا يمكن أن يُسجن، لأنه يريد أن يكون حرّاً حتى يواصل النضال!

كان وقت وجبة الغداء. عندما رفع غطاء الجفنة، دغدغت روائح الأكل منخرَيه، فابتسم أليريو الأسود وهو يفكر في دورا التي تضع التوابل في كل شيء. فكّر في المتنفّس الذي جلبته له هذه المرأة. تذكّر حكايتها: كيف سلّمت ابنها لزوجها، وكيف رفضت أن تتزوج لتبقى إلى جانب أمها، التي ماتت بعد ذلك بقليل. كم كان أليريو الأسود سعيداً وهو يعيش مع دورا! كانت علاقتهما هادئة رغم العقبات وأشكال النضال الكثيرة التي كان يلتزم بها مع أهل الفافيلا. كان لا بدَّ من النضال للحصول على الحقّ في عدم مغادرة هذه الأرض التي كانوا يسكنونها. كان لا بدَّ من الحصول على محام منتدب بالمجّان للدفاع عن ديتينيا، في السجن. كان لا بدَّ من الدفاع عن زي، ابن ميرسيس، الذي تعرض لحادثة شغل وكان المشغّلون

يحاولون أن يخدعوه. كان لا بدَّ من الاهتمام بأطفال العائلات المطرودة، الذين لم يتمكنوا من التسجيل في المدرسة أثناء الموسم الدراسي. اضطرّ أليريو الأسود إلى أن يذهب ويطالب المدرسة بشهادة أثناء فترة استراحته لتناول الطعام حتى يتمكن الأطفال من التسجيل في المدرسة. كانت المدرسة هي الهمّ الأول لأليريو الأسود. وفي حالته الخاصة، ساهمت القراءة في فهمه للعالم. كان مقتنعاً بأن الشخص حين يعرف قراءة ما هو مكتوب وما ليس مكتوباً، فإنه يخطو خطوة حاسمة نحو التحرُّر.

كانت الحياة تستوجب النضال! لا بدَّ أن نسير، لا بدَّ أن نتقدم إلى الأمام، هذا ما كان أليريو الأسود يردّده في كل وقت وحين. وكان يقف إلى جانب الجميع. دائماً يتابع باهتمام كبير. كان أليريو الأسود يملك بداخله القدرة على القيام بكل شيء: يفكر، يبتكر، يغيّر، يناضل، ويبني. وبداخله أيضاً، كانت دورا، والحلم، والحب والمستقبل أيضاً...

استيقظت دورا في ذلك الصباح وكسل لذيذ يلتصق بجسدها. وظلت مضطجعة، وعيناها مفتوحتان. كانت سعيدة. فكّرت في أليريو الأسود. لم يسبق لها أن عرفت رجلاً بكل هذا الحنان في الفراش وخارج الفراش. حتى

الإسباني لم يغمرها بكل هذا الغدق من السعادة. ثم تذكرت والد ابنها الذي انقطعت صلاتها به. ربما يكون في السادسة أو السابعة من عمره. لم تعبّر أبداً عن أي رغبة في رؤيته، وهي غير نادمة على ذلك.

اليوم هي تحب أليريو الأسود وأليريو الأسود يحبها. باستثناء الجدة ريتا وبوندادي، لم تصادف قط في حياتها شخصاً بهذا القدر من الإيثار. لم تعتبر قط من باب الإسراف ما تقدّمه لهم السيدات من طعام زائد. ولم تفكر قط أن هذا الطعام الزائد ينتج عن استغلال من لا يملكون شيئاً أو لا شيء تقريباً من لدن أولئك الذين يملكون كل شيء أو كل شيء تقريباً. ولم تفكر قط بعمق في خطة هدم الفافيلا. لقد جاءت إلى هنا قادمة من فافيلا أخرى، بكل بؤسها. وما الفرق بين هذه الفافيلا أو فافيلا أخرى؟

كانت تشعر بالحزن تجاه الجدة ريتا، والعم توتو، وماريا الكبرى، وماما جوانا مع أطفالها... لحسن حظها، ماتت فيلو غازوجينيا قبل أن تضطر للرحيل! أين ستذهب عائلات كريسبين، وآرنو، وبانغيلا، وخورخي، وزيفيرينو، وبيغودي، وأركانجو، ودوس سانتوس؟ أين ستذهب العائلات الأخرى التي كانت تسكن هنا منذ نشأة الفافيلا؟ وهي، أين ستذهب؟ من قبل، لم يكن لهذا الأمر أهمية تذكر. كانت تعيش لوحدها ويمكنها أن تتدبر أمرها وتذهب أينما شاءت، أما اليوم، فقد صار لقراراتها معنى آخر. كانت تحب رفقة أليريو الأسود وتريد أن تتابع السير معه من الآن فصاعداً.

نهائياً، وصارت الشمس، من جديد، سيدة السماء.

ثم عاد الوحش، غاضباً، متعطشاً إلى الأكواخ الواطئة والوهاد. يهدم كل شيء في طريقه. وقدّم مستخدمو الشركة إلى ثلاثة وخمسين عائلة أخرى إشعارات بالإفراغ. «لكم أن تختاروا! الألواح الخشبية أو المال؟ واجمعوا أسمالكم!». كان بعض السكان، في المنطقة التي ينشط فيها الوحش، يبتعلون الغبار طوال النهار. إن كان لا بدَّ من الرحيل، وليس هناك من خيار آخر، من الأحسن الرحيل في الحين قصد توفير مزيد من الألم. فقط سيذهبون ليعيشوا في مكان آخر. وكيف سيكون العيش في مكان آخر: شبيهاً بهذا العيش هنا، أم أسوأ حالاً منه؟

أغلقوا نافورتَين أو ثلاث نافورات: كان لا بدَّ من ممارسة الضغط على أهل الفافيلا وإرغامهم على القبول، ووضعهم في حالة من الإزعاج الأقصى.

بدأ العم توتو يعاني من ارتعاش اليدين. ويبدو بالعين المجردة أنه يشيخ. يبقي غليونه معلقاً على ركن فمه ويظلّ لساعات طوال ينظر في الفراغ، والدموع في عينيه. كان منظر وحدته شيئاً مثيراً للشفقة. تجلس ماريا الكبرى إلى جانبه، وتبدأ الحديث. لكن العجوز بالكاد يجيبها، وحين يجيب، يعود بعيداً إلى زمن الطفولة، ينبش، يقلب، يبحث عن حجارة حادّة تدميه. كم من مرة كانت هي والعجوز يتبادلان الحجارة من مجموعتيهما وماريا الصغرى تستمع إليهما!

كان شيئاً مؤلماً جداً. فيما مضى، كانا يرويان حكاياتهما والدموع تحاصر حنجرتيهما، لكنهما يقاومان. أما اليوم، فصار كل شيء أكثر إيلاماً، وحضوراً. فالآلام التي كانا يظنان أنها وراءهما كانت هنا، حية، تتلألأ فوق جلديهما مثل نقط من دم.

في ذلك الصباح، ذهبت ماريا الصغرى إلى المدرسة وعدمُ الرغبة يُغلّف روحها وجسدها. ذهبت تجرجر قدميها. تموت خوفاً كلما غابت عن الفافيلا. تخشى عند عودتها ألّا تجد أحداً في ذلك المكان المحصور.

في الأسبوع الماضي، تطرقوا أثناء الدرس لموضوع «تاريخ تحرير العبيد». استمعت ماريا الصغرى إلى الأستاذة وقرأت نصّاً من الكتاب. كانت الأستاذة متعوّدة على أسئلة الصغيرة واستنتاجاتها، فظلت تنتظر. ظلت ماريا الصغرى هادئة وقصية. سألتها المعلمة عن سبب هذا الابتعاد. نهضت ماريا الصغرى وأجابت أن لديها كثيراً ما ترويه من الحكايات عن العبيد وتحريرهم. وقالت إنها يمكن أن تتكلم أثناء الحصة بكاملها، لكنها ليست متأكدة إن كان ذلك هو ما تريده الأستاذة. يمكنها أن تتحدث عن «سينزالا» لم يتحرّر سكانها بعد لأنهم لا يتوفرون على أي شرط من شروط الحياة. طلبت منها الأستاذة أن تشرح رأيها. نظرت إليها ماريا الصغرى، ثم نظرت إلى

رفاقها وأصدقائها. نظرت إلى السوداء الوحيدة في القسم، ماريا إسميرالدا، المتحصّنة داخل كتلة من اللامبالاة. حاولت أن تتكلم فانحبست الكلمات في حلقها.

كانت تعرف حكايات كثيرة، نشأت عن تاريخ آخر يعجّ بأحداث متسلسلة، ومترابطة، رغم أنها متباعدة في الزمان وفي المكان.

فكرت في العم توتو. أهذا ما تسميه الأستاذة إنساناً حرّاً؟ فكرت في ماريا الكبرى، في جدة ماريا الكبرى، في جدها أيضاً، لويس دا سيرا المجنون. فكرت في تورينا السوداء، في فيلو غازوجينيا، وفي ديتينيا. فكرت في الجدة ريتا، في الأخرى، وفي بونندادي. فكرت في أطفال الفافيلا، الذي لا يُكملُ سوى القليل منهم مرحلة الدراسة الابتدائية، وهم يعدّون على رؤوس الأصابع. كانت هي الوحيدة التي تدرس في الإعدادية، مع أنها متأخّرة بسنتين. وعليها أن تترك المدرسة حين سترحل أسرتها. فكرت في أليريو الأسود. كان يعمل من أجل بناء تاريخ جديد ومختلف.

ثم نظرت ماريا الصغرى مرة أخرى إلى الأستاذة وإلى القسم. كان التاريخ عظيماً جداً! كان التاريخ حياً وينشأ من الأشخاص، من اليوم، ومن الآن. وهذا لا علاقة له بذلك النصّ الذي قرأته للتو. جلست من جديد وفكرت: «لماذا لا تكتب يوماً هذا النوع من التاريخ؟ لماذا لا تنقل إلى الورق يوماً ما كُتب، سُجّل ونُحت في جسدها، وذهنها، وقلبها؟».

أكثر شراسة. عندما كانت لا تزال بعض الأكواخ عالقة من حولها، كان خطمها يبدو أقل حجماً. لكن الأكواخ اختفت، والعائلات أيضاً. لقد دكّ الوحش كل المنطقة المجاورة. أحياناً، كانت الجرّافة تقترب كثيراً من الفوّهة لدرجة أننا نظن أنها ستتدحرج عبر المنحدر. فنصلّي، ونطلب بصدق وقوع مثل تلك الحادثة. لقد بلغ غضبنا، ونفورنا من مغادرة الفافيلا درجة لم يعد يهمنا أمامها موت السائق. كنا في حاجة إلى أن نرمي بكل حقدنا على شخص ما، حتى لو كنا نعلم أن ذلك الشاب المسكين لا حول له ولا قوة. لم يكن هو من يطردنا من الفافيلا.

كنا محطمين تماماً. تقع شجارات لأسباب تافهة، وتصبح أتفه الأشياء موضوع خلاف. دجاجة هذا تنقر زرع ذلك. كرة طفل تسقط في حديقة الآخر. وهذا دينٌ لم يطالب به أحد من قبل ثم جاء أحدهم يطالب باستعادته مع الفوائد. حجارةٌ غامضة تسقط فوق السطوح. من يرميها؟ لا أحد يعلم! يقع اللوم على من يُفاجأ وهو في وضع مريب. وما هو الوضع المريب؟ كل شيء! يد في الجيب، مشية تنمّ عن البطالة، خطوات حثيثة من دون سبب، تونيو، زي، نيكو. وعلى المذنِب المشار إليه بالبنان أن يجري ويهرب قبل أن يوسعوه ضرباً.

يصبح الجار عدوّاً، والأخ متنفساً لكل الحقد، والمرارة، واليأس، لم نكن نعرف أننا جميعاً في الهمّ سواسية، نمتطي المركب

نفسه ونمخر عباب البحر نفسه من البؤس. ومن دون قائد، كان المركب وركابه يهيمون على غير هدى.

بدأ الخناق يشتد، وأليريو الأسود يحاول أن يرشدنا. لا، لم يكن لهم الحق، أو بالأحرى كان علينا ألّا نترك لهم هذا الحق. كانت لا تزال هناك بعض العائلات في الفافيلا، ربما نصف العائلات، التي كان بقاؤها يتعرّض لعرقلة متزايدة. تمّ اقتلاعُ كل النافورات العمومية بلا سبب باستثناء ثلاثة: النافورة العليا، النافورة السفلى، والنافورة الكبرى.

ظلَّ أليريو الأسود مصرّاً على أن يزرع فينا الأمل، ليس الأمل الخامل، الذي يوهمنا بأن معجزة ما قد تحدث، بل الأمل الذي نلمسه في النضال. منذ وصوله، وبعد أن اتخذ لنفسه مأوى في كوخ دورا وجسدها، كان يذرع الفافيلا. فصار يعرف كل زقاق، وكل شخص، ويعرف خطة الهدم بكل تفاصيلها.

كان البعض يبكون دون أن ينبسوا ببنت شفة. وكان المسنون والأطفال هم الأكثر تأثراً. وتحدث أليريو الأسود عن الملكية المكتسبة. كان البعض قد سمع عنها من قبل. فقال أحد الشيوخ:

– على أي، الأقوياء هم من يضعون القوانين دائماً. لا تكن واهماً، يا ولد. أنا لا أؤمن سوى بالله. فقال أليريو الأسود مع نفسه: «إنهم في حاجة إلى أن يؤمنوا بأن الله إلى جانبهم...». هو أيضاً كان يؤمن بالله، لكنه كان يؤمن أيضاً بالقوة، وبفعل الإنسان.

كم من السياسيين وأصحاب مهن أخرى صعدوا إلى الفافيلا وهم يغدقون على الناس بالوعود! وأنجز صحافيون من جرائد كبيرة لقاءات مؤثرة. كما أنجزت قناة تلفزية تحقيقاً مطوّلاً. جاءت المُساعِدات الاجتماعيات، طيبات وحنونات، بنظرتهنّ الجامعية على العالم وعلى الواقع... لا، لم يعد أهل الفافيلا يؤمنون بأي شيء.

كنا جميعاً نحب أليريو الأسود. كان إلى جانبنا، لكن كلامه كان يسقط في فراغ يأسنا. كنا نحب طاقته، وكلامه المفعم بالأمل. لقد وصل منذ وقت ليس بالبعيد، لكنه كان يعانق آلامنا. لكن لا أحد كان يؤمن بأي حلّ ممكن.

ذات يوم، قرّرت مجموعة أن تذهب إلى مكاتب الشركة المكلفة بعملية هدم الفافيلا لتشرح تداعيات النافورات التي تمَّ حذفها. لم تحظَ المجموعة حتى بالاستقبال. وعادوا برؤوس مطأطأة، في حالة تامة من الإحباط واليأس، وازدادت عقدهم وشعورهم بالذنب من فقرهم.

لكن أليريو الأسود كان مختلفاً عن الآخرين. كان قلقاً لكنه ظلّ واثقاً من نفسه، شجاعاً، ومحافظاً على تبصّره. كان هو الوحيد الذي يطأ هذه الأرض ويؤمن أنها في ملكه. لم تكن سوى مسألة وقت. يوماً ما، اليوم أو غداً، سيكون للناس الحقوق نفسها. يوماً ما، سوف يعلن الناس أنهم أخوة وسيعيشون كذلك.

فارغتين من كل الممتلكات المادية. كانت تهزم هذه الفترة من الألم المرير باستعمال سلاحها الوحيد: الحب. كانت تعرف أن حياتها لم تذهب عبثاً. لم تكن تملك ثروة تستطيع أن تعدّها، وتحصيها، وتغلق عليها في بنك، وأكياس، وعلب، ودواليب. كانت كل ثرواتها مختبئة بداخلها.

كم من الأطفال ولدوا على يديها! وساهمت في ميلاد العديد من الحيوات! نعم، كانت الحياة قاسية، لكنها تستحق العناء. لقد عاينت آلام تلك النساء الواضعات، وكانت شاهدة على كل تلك المعاناة، لكنها رأت أيضاً الفرح، والأمل. لقد رأت أطفالها وأطفال الآخرين يكبرون ويعيشون، رغم كل شيء. كانت تحتفظ بكثير من الأمل. ولم تكن هناك من حاجة إلى اليأس. الحياة يمكن أن تستسمر في مكان آخر، في أجساد أخرى. يمكن أن يسقط جسدها اليوم لكن أجساداً أخرى قد ترتفع. لا بدَّ أن هناك سبباً ما وراء كل هذا. لا بدَّ من الاستمرار. البعض يموت، والبعض يولد.

وشدّها حنين قوي إلى الزمن الذي كانت تلمس فيه بطون النساء الحوامل، تبحث عن الحياة التي تنبض بداخلها... بيد أنها اليوم تمسك بحياة أخرى بين يديها. كانت الأخرى تعيش بفضل صداقتها وحبها.

نهضت الأخرى بصعوبة ونظرت إلى الجدة ريتا. كانت تريد أن تقول شيئاً لكنها لاذت بالصمت. في الآونة الأخيرة، أصبحت لا تطيق صوتها فلا تفتح فمها. كانت الجدة ريتا هي من يتكلم، وتتكلم دائماً. كانت الأخرى تجيب بكلمات من مقطع واحد، لكنها تشعر بمتعة كبيرة وهي تنصت لصديقتها. كانت الجدة ريتا هي يقين هذا العالم.

لم تعد تخرج إلى الزقاق. من حين إلى آخر، كانت تنظر خفية من وراء البوابة ذات الألواح الخشبية المنفصلة. كم كانت الوجوه كئيبة! وكم ازداد عدد المتردّدين على النافورة! القِرَب الفارغة مصطفّة في طابور، تشرع أفواهها، فتثير عطشها.

وكانت ماريا الصغرى محبَطة. ذات يوم، شعرت الأخرى بأنها يمكن أن تخرج إلى ما وراء البوابة، وترقص، وتصيح، وتنطّ دون أن تنتبه لها السوداء الصغيرة لكثرة ما كانت شاردة.

كانت الفافيلا تعاني في تساوق وانسجام. الخوف نفسُه، واليأس واحد: الهدم. وهي، أين ستذهب؟ إلى مكان ما رفقة الجدة ريتا. لم يعد ابنها ينظر إليها. لقد قرأت مرة الخوف في عينيه، ومرة أخرى، قرأت فيهما الحقد. لم يعد يكلمها. قد يجد خلاصه لو غادر الفافيلا لأنه سينفصل عنها نهائياً. سيكون ذلك بمثابة دفنه في مكان بعيد؛ وسيقطع معها كل شكل من أشكال الأواصر.

كان بعض الناس في حالة قصوى من اليأس ويفضّلون التخفيف من معاناتهم. كانت بعض العائلات، عندما يرون شاحنة الرحيل مقبلة، يقترحون أنفسهم للمغادرة.

لقد أصبح البقاء في الفافيلا جحيماً لا يطاق. كان الوحش يشتغل طوال النهار ويمضي الليل بعين المكان، عندما تضيء النجوم الأرض. صار كل شيء غباراً ويأساً، ناهيك عن الماء الذي أصبح عملة نادرة. أثناء الليل، كان حرّاس بعض المنازل في الحي المجاور يتركون أهل الفافيلا يملؤون بعض القرب بالماء. كنا نمشي لمدة ساعة تقريباً، قربةٌ فوق الرأس، وأخرى على طرف الذراع. في الصباح الباكر، كنّا منهكين من التعب. لكن لا أحد يشكو: كنا نعرف أنه لم يعد هناك من حلّ. كانت النافورات العمومية الثلاثة التي لا تزال تشتغل لا يسيل منها غير خيط ماء رقيق خلال بضع ساعات في اليوم. بدأت الغسّالات يفقدن زبائنهنّ. وأما من بقي منهنّ فلا يعرفن كيف يتدبّرن أمرهنّ.

الكحول، التبغ، ولعب الورق... كان أهل الفافيلا يمارسون متعهم علانية والسكارى يعترفون بعاداتهم أمام الملأ بشكلٍ منتظم. لكن رذيلة ظلت مخفية لوقت طويل. كانت شكوك كثيرة تحوم حول أبناء آنا دو جاسينتو، الذين يكونون دائماً رفقة أبناء العائلات الغنية، ويقال إنهم يتزعّمون تلك التجارة. كان شبّان يمتطون دراجات نارية يذرعون الفافيلا صعوداً ونزولاً. لكنهم ظلّوا محتشمين إلى غاية ذلك

الحين، ثم أخذ الجميع يدخّن العشب بكل هدوء في واضحة النهار. وفي كل وقت وحين، كانت رائحة بطعم السكر تغزو الأزقة.

ذات ليلة، حطم رجال الشرطة باب كوخ آنا دو جاسينتو واقتادوا أبناءها. ولعدة أيام، لم يصعد الشبّان عبر المنحدر على متن دراجاتهم النارية. ثم رحلت آنا دو جاسينتو. لا أحد، بما في ذلك أليريو الأسود، تمكن من معرفة ما آل إليه أبناؤها. ثم عاد أبناء العائلات الغنية يمتطون دراجاتهم النارية.

عندما كنا ننزل عبر المنحدر ونصل إلى الساحة، كان شبّان مرحون ويرتدون ملابس أنيقة يمزحون ويتحدثون تحت الشمس. كانوا يعتبرونهم شباناً معارضين، طلبة، ومثقفين. أما أبناء آنا دو جاسينتو فكانوا شبّاناً متسكعين، مشاغبين ومهمّشين.

لم تعد ماريا الصغرى تطيق هذا القلب الذي ينفجر في عينيها وفي صدرها.

كنا نخسر مزيداً من النقط كل يوم في الفافيلا. كانت عربات النقل تجوب الفافيلا طوال النهار، وتعود كل يوم. أصبح مجالنا محدوداً في لا شيء تقريباً. الأكواخ تُهدم بسهولة. والمواد التي تصمد أمام الهدم يتم أخذها. آجُرّ، قصدير، ألواح خشبية، وورق مقوى أحياناً.

ولم يحتج بعض الناس إلى بدء حياة جديدة بعيداً عن الفافيلا. فقد مات قبل الرحيل زي دا غواردا، إيزولينا العجوز، والطفل براندينو، وآخرون.

وفجأة بدأت سيدينيا سيدوكا، صاحبة المؤخّرة الذهبية، التي لم تكن تفتح فمها الآونة الأخيرة، تتكلم. كانت تقول إنها ستموت. تموت، كيف، ولماذا، ولأي سبب؟ كانوا يسألونها. فتجيبهم سيدينيا إنها ستموت لأنها لا تعيش. كانت سيدينيا مجنونة: تموت لأنها لا تعيش؟!

كانت الفوهة تكبر في المنطقة الفارغة من الفافيلا، التي أصبحت تفرغ من ساكنتها يوماً عن يوم. كان ثقباً عظيماً، رطباً من الداخل. ذات يوم، هناك من أعلى الفوهة، رأينا شبحاً آدمياً هناك في قعرها. هل كان عجوزاً، سكيراً، طفلاً؟ غالباً ما يخرج الناس سالمين بعد السقوط في الفوّهة، سواء أصيبوا بكسر أم لم يصابوا، ولم تسجّل أية حالة وفاة قط. حدث ذلك ذات أحد صباحاً. نزل الرجال الأقوياء إلى الفوهة. رأيناهم يحملون شكلاً مغمى عليه بين أذرعهم. وشيئاً فشيئاً، تعرّفنا الشبح. كانت سيدينيا سيدوكا، صاحبة المؤخرة الذهبية! هل ماتت لأنها لا تعيش؟...

لم يجد أحد تفسيراً لموت سيدينيا سيدوكا. لم يسبق لأحد أن مات بسبب السقوط في الفوّهة، التي صار قعرها ليناً من كثرة الطين والأعشاب. ظاهرياً، لم يكن يبدو على سيدينيا أية علامة، أي جرح. هل سقطت في الفوّهة شبه ميتة؟ لم تكن الفوّهة عميقة جداً، بل كانت واسعة فقط، واسعة جداً. بل إن بعض الأشخاص حاولوا أن

يبنوا منازلهم فوقها، لكنهم ذهبوا بسبب الرطوبة والأوساخ التي يقذف بها الجيران. فكيف نفسّر موت سيدينيا سيدوكا؟

كانت سيدينيا سيدوكا، خلال سنوات اتزانها العقلي، تمثّل الحياة داخل الفافيلا. وكان جسدها مرادفاً للذة الجنس، والمتعة. ثم جاء جنونها، مفزعاً، في البداية، قبل أن نتعود عليه. وصارت سيدينيا سيدوكا حكاية من حكايات الماضي، رغم أننا كنا نراها دائماً في حانة سو لاديسلاو، في حانة سيما، وفي أزقة الفافيلا، صامتة وصموتاً، مجنونة لطيفة بنظراتها المحيِّرة. كانت جميلة، رغم شعرها القصير المتجعّد والمتناثر، الوسخ، من دون عناية. كان جسدها ممشوقاً. وصار فستانها الأبيض وسخاً، وقذراً.

كانت كل العيون مركزة على سيدينيا سيدوكا. كان الرجال الذين عرفوا جسدها الدافئ يبدون مفزوعين من نومها الخالد. لقد تعوّدوا على جنونها، لكن ماذا عن موتها؟! كانت الفوّهة واسعة، وقاسية. هكذا صار فقرنا أكثر قسوة. الموت! الموت!

وصل أليريو الأسود، هادئاً وحزيناً. لا يمكننا أن ندفنها. لقد ماتت دون أن تكون مريضة. كانت فقط مجنونة، مجنونة لطيفة. ويجب تشريح جثتها.

وسيتم دفنها مثل المعوزين.

مكتبة
t.me/t_pdf

ماريا الصغرى وشوّش على بالها. لقد أخطرتهم سيدينيا سيدوكا أنها «ستموت لأنها لا تعيش». فكرت السوداء الصغيرة في هذه المرأة التي سوف يدفنونها مثل المعوزين. على أي، أليسوا كلهم معوزين وهم غارقون في البؤس نفسه؟ أعادت تركيب حياتها وحياة الآخرين. تذكرت الجوع الذي عرفته منذ طفولتها. عصيدة الذرة المخفَّفة بالماء ومن دون سكر عندما كانت رضيعاً. لكن ماريا الصغرى انتصرت، وكبرت رغم الشدائد. لطالما ذهبت إلى المدرسة دون أن تأكل شيئاً. وفي المساء، كانت تتغذى على بقايا أكل مُشغّلات ماما جوانا والخالة ماريا الكبرى. وفي بعض الأيام، لم تكن تأكل أي شيء تقريباً. لحسن الحظ، كان العم توتو، ماريا الكبرى، وماما جوانا متبصّرين. في البقعة الأرضية الضيّقة التي تحيط بالكوخ، كانوا يزرعون المنيهوت، والذرة، وبعض الخضر. كما كانت هناك شجرة مانجو، وشجرة موز، وشجرة بابّايا. أثناء موسم الفواكه، يكون الجوع أقل حدّة.

كانت ماما جوانا تشتغل كثيراً، وأهل الفافيلا يشتغلون كثيراً جداً! طبعاً، كان بينهم الكسالى، والسوقيون، واللصوص، لكن هذا لا يمثّل فرقاً كبيراً بينهم. كانت ظروف الحياة واحدة بالنسبة إلى الجميع: العوز، على اختلاف درجاته وتفاوتها.

«تموت لأنها لا تعيش...». كان تهديد سيدينيا سيدوكا يقفز في ذهن ماريا الصغرى. فأخذت تفكّ كل ضفائر شعرها الصغيرة كما لو أنها تفكّ هذه الفكرة القاتلة. كان قلبها يختنق. نظرت ماريا الصغرى

إلى نفسها في قطعة المرآة، فوجدت نفسها جميلة وحزينة مثل أمها. داعبت خدها. لا! لن تترك الحياة أبداً لتفسد بتلك الطريقة البشعة. لا بدَّ من الإيمان. الجدة ريتا، بونادي، أليريو الأسود: لم يكن اليأس يتسلّل إلى قلوبهم أبداً.

لن تفكر مرة أخرى في تهديد سيدينيا سيدوكا. لا بدَّ من أن تعيش، «تعيش لأن تعيش». لا يمكن أن تُختزل الحياة في هذا البؤس البئيس. فكرت، وبحثت في أعماق ذاتها عمّا يمكن أن تقوم به. كان قلبها يختنق، مضغوطاً هناك داخل صدرها.

ثم خطرت عليها الفكرة واضحة وخاطفة كالبرق: في يوم من الأيام، سوف تكتب كل شيء.

وصلت امرأة

إلى الفافيلا مؤخّراً. كانت امرأة نحيفة، ذات شعر قصير، قصير جداً كأنه شعر رجل. تمشي بتثاقل، مطأطأة الرأس، كأنها تحمل على كتفيها كل ثقل العالم. توقفت، نظرت إلى المنطقة التي هُدمت فجحظت عيناها أمام ذلك الفراغ. كل هذه العائلات التي رحلت، يا إلهي! هل ما زال كوخها قائماً؟ وهل ما زال أهلها هناك؟ ما الذي ستصنعه بحياتها؟ أين ستشتغل؟ كيف هي أحوال أبنائها، وأختها؟ وهل كان أبوها؟... كيف ستواجه الجميع؟

مشتِ المرأة مسافة أخرى قصيرة ثم توقفت، متردِّدة. لا، عليها أن تتقدّم. كانت هناك، وعليها أن تصل. كانت لديها فرصة لتهرب من الجميع ومن كل شيء، لكنها لم تفعل. غطست قدميها في التراب بقوة، بغضب شديد تقريباً، ثم عضّت شفتيها حتى أدميتا.

عندما دخلت ديتينيا إلى بيتها كان خيط دم رقيق يسيل من شفتيها المعضوضتَين. كان والدها المشلول النحيف ناعساً فوق الكرسي، القنينة والقدح بجانبه. تذكرت آخر اللحظات التي قضتها هناك. وتذكرت الفقر. أما اليوم، فكل شيء نظيف ومرتّب. كان بيتو مقرفصاً وسط الصغيرين يساعدهما على إنجاز الواجبات المدرسية. كان هو أول من انتبه إلى حضورها. رفع عينيه ونظر إلى أمه غير مصدّق. وأضاءت شرارة خوف وجه الشاب. ورأى الدم على شفتيها المجروحتَين.

تقدمت ديتينيا خطوة، وشعور بالذنب يدوخها. كم كبر ابنها! فقدَ كل مميزات الطفولة، وأصبح بالغاً. ما هذا العنف، يا إلهي! خلال سبعة أشهر، شاخ الطفل عدة سنوات. وهي أيضاً. لقد كان السجن جحيماً لا يطاق.

ثم نهض الأطفال الثلاثة وارتموا في أحضان أمهم، غير مصدقين، وسعداء بهذا اللقاء.

كانت ديتينيا تشعر في دواخلها بخجل كبير. كانت تخشى أحكام الآخرين، ونظرة والدها. كان والدها يشرب، ينعس، يشخر، ثم يشرب. عندما رأى ديتينيا، ابتسم، رفع يده المرتعشة، ووضعها على

رأس ابنته. كان يبدو سعيداً تقريباً. لم يكن مفرطاً في التعبير عن إحساسه وأشار إلى قنينة ماء الحياة الفارغة.

في السجن، كانت ديتينيا تفكر دائماً في العودة إلى بيتها. كانت تريد أن ترى أهلها، تخرج وتبدأ من جديد. وها هي الآن جامدة، فاترة، غارقة في الندم، فارغة من الرغبة. كيف تبدأ؟ بماذا تبدأ؟ كانت حرة طليقة، لكنّ ثمة شيئاً آخر...

أغلقت ديتينيا على نفسها في البيت، وهي تشعر بالخجل من الجميع ومن كل شيء. تريد القيام بشيء ما، لكنها لا تعرف كيف تتصرف. ألهت نفسها بأشغال البيت عوض بيتو، لكن عندما لا يذهب للبحث عن الماء لهم أو للآخرين، كانت تشعر كأنه يراقبها.

كانت ديتينيا في حاجة ملحّة إلى عمل، حتى تتجنّب التفكير. كانت دائماً تشتغل وتكدّ، حتى في السجن حيث لم تكن تتوقف لحظة واحدة، تساعِد في غسل الملابس وكيّها، وفي المطبخ، وحيثما احتاجوا إليها. وحين تعود إلى زنزانتها، تنام في الحين، وقد هدّها التعب. كان العمل يساعدها على أن تنسى، وتشمل، فيقوم بالدور نفسه الذي يلعبه ماء الحياة بالنسبة إلى والدها. نظرت إلى ذلك الجسد العجوز فوق الكرسي المتحرك.

تذكرت الزنزانة التي كانت لا تزال فيها بالأمس. في ذهنها، رأت كتاكيت داخل قشرة البيض. قشرة البيض رقيقة. هل الكتكتوت هو الذي يكسر القشرة بمنقاره ليخرج، أم الدجاجة؟ أم هما معاً؟ لم تنتبه إلى الأمر قط. عليها أن تكسر القشرة لوحدها. وقشرة الحياة لم تكن رقيقة كقشرة البيض؛ قشرة الحياة صلبة، صلبة كالحديد.

وتعاني من العطش. تمدُّ أفواهها فارغة نحو السماء، وتصيح كأنها تطلب النجدة. كان الله، وراء الغيوم، ينظر إلى هشاشتنا جميعاً من دون تأثر. كانت الغسّالات يائسات، بسطولهنّ المتراكمة، وأيديهنّ المغمسة في الصابون، يثرثرن أو يلزمن الصمت. والماء ينزل خيطاً رقيقاً، بطيئاً، متكاسلاً، كما لو كان جميلاً من الجمائل. لقد كان سوء النية منتشراً في كل مكان، حتى في الحياة.

كانت ماريا الصغرى تنظر إلى السطل الذي كان فيما مضى في ملك فيلو غازوجينيا. بدأ يتشقّق تحت أشعة الشمس. كانت الغسّالات يملأنه بالماء حتى يظل رطباً. صمد لبعض الوقت، لكن سرطاناً خبيثاً بدأ ينخر خشبه الآن. كانت فراغات فاغرة تفرّق بين لوحة خشبية وأخرى، ولم يعد يجدي شيئاً أن يوتِّروا الأقواس التي تشدّها. كان السطل يذكرها بآخر لحظات فيلو غازوجينيا: الشيخوخة الجافة.

يومئذ، همهم بيتو خافتاً في أذن ماريا الصغرى، كأنه يفكر تقريباً، وأفشى لها سرّاً:

- لقد عادت أمي إلى البيت!

تردّد صدى ذلك الخبر عنيفاً داخل صدر ماريا الصغرى. لقد عادت ديتينيا إلى بيتها!

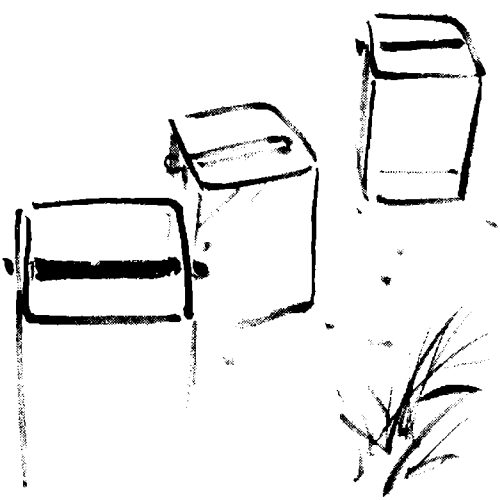

عندما ألقت دورا كُرات البطاطس في الزيت وهو يغلي، انتشرت الرائحة في الكوخ بكامله؛ فانتابها دوار قوي جداً حتى أنها كادت أن تتقيأ على القدر. ابتعدت وهي تترنح. ابتسمت، سعيدة. لقد كانت حاملاً.

داعبت بطنها حيث قام أليريو الأسود بوضع البذرة. كان الرجل يقف وارءها، وهو يتأهّب للخروج. كان الزوجان سعيدَين. أكيد أنه كانت هناك بعض المشاغل، وخصوصاً رحيلهما الوشيك، بيد أن دورا اختارت حلّ الخشب والآجُرّ، وقررا أن يستقرا في فافيلا أخرى بدأت تزدهر في حي آخر من أحياء المدينة. سوف يبنيان كوخاً آخر. كان أليريو الأسود ماهراً في مثل هذه الأمور.

كانت تفضّل أن ترحل في أقرب وقت ممكن، لكن أليريو الأسود تعهّد بألا يغادر إلّا مع آخر مجموعة. كان يريد أن يرى كل شيء، وألّا يغيب عنه أي شيء. من يدري أن الأمور قد تكون مختلفة مع المتأخّرين؟ «كيف يستسلمون بسهولة...» فكّر، مع أنه يعترف أنه لا فائدة من المقاومة الآن. كان الأمر محسوماً، لقد استعادوا المنطقة. لكن أهل الفافيلا يمكن أن يقولوا شيئاً، يمكن أن يتحدثوا بصوت واحد، ويتردّد صدى شكواهم وحقوقهم المهضومة إلى الأبد!

تذكر أليريو الأسود طفولته وما أخذه، شيئاً فشيئاً، من التزام تجاه نفسه وتجاه الآخرين. كان واثقاً من أن التاريخ سيكون مختلفاً

في يوم من الأيام. من يدري، ربما يأتي المستقبل بسرعة أكبر ويغيّر الحاضر ويفزعه. يجب أن يكون المرء مؤمناً، ويظل متيقظاً، وواعياً. فالجوع، والبرد، والإحباط، واليأس لم يكن حكراً على البعض بل كان من نصيب الأغلبية العظمى. كان الافتقار لكلّ شيء قنبلة، وخطراً يتهدد حياة الأغلبية.

كان يمشي، وهو يضمُّ قدر الأكل إلى صدره. تذكر أن ربّ العمل سأله مجدداً بالأمس عن وثائقه. عند نهاية الزقاق ظهرت العمارة التي كان هو ورفاقه من الفافيلا يبنونها. نظر إلى العمارة ففكّر في أكواخهم. كانت بعضها من الآجُرّ، هذا صحيح، لكن ذلك كان بذخاً لا يدركونه إلّا بعد سنوات من الكدّ. يبنون سوراً اليوم، وسوراً آخر متى استطاعوا إليه سبيلاً. بينما عمارة تُبنى بين عشية وضحاها بفضل سواعدهم...

أسرع الخطو. كان القدر يدفئ يديه. وكان هناك حب دورا. كانت هناك بذرة غرست في رحم-أرض زوجته. وكان هناك النضال الذي لن يتخلى عنه أبداً. وكان واعياً بهذه المسؤولية، يستحضرها في كل لحظة من حياته، وفي كل فعل من أفعاله. لم يكن أليريو الأسود يتهرّب من مسؤولية النضال، بل كان يناضل بكل كيانه من أجل عالم أفضل.

تأتي في الصباح وتظل تحمل العائلات حتى حلول الليل.

أصبح الانتقال من مكان إلى آخر من الفافيلا أمراً محفوفاً بالمخاطر لأن بعض المناطق صارت مقفرة تماماً. كان السكّان يخافون من أنفسهم ومن الآخرين. أصبح الصديق عدوّاً ممكناً، وكان هناك الخطر الحقيقي والخطر الوهمي. ليلاً، لا تتحرك النساء والأطفال إلّا زرافات حين يذهبون للبحث عن الماء أو يعودون إلى بيوتهم في الصباح الباكر.

استبدَّ الخوف من اللامرئي بنفوسنا. لم نعد نثق بأي شيء. بدأت تظهر بعض الأشباح: أصدقاء، أقارب نحبّهم، أموات رحلوا منذ مدة أو في الآونة الأخيرة. كانت رؤيتهم تساعدنا على طرد الخوف من نفوسنا. خوف يأتي من حالات ملموسة، كأن نغادر مكاناً كنا، بطريقة ما، نحبه، ونعتبره مكاننا... الخوف من أن نبدأ حياة أخرى تشبه تماماً حياتنا السابقة. الخوف من أن يكون الغد أسوأ بكثير من اليوم. الخوف من أن ندرك ضعفنا، ويأسنا، وانحطاط شأننا.

هكذا، صارت تزورنا فيلو غازوجينيا، وخورخي بالالايكا، ووالدة فويزينيا، وسيدينيا سيدوكا. وفي الأرضية التي كانت تُجري فيها سابقاً دوريات كرة القدم، التي نحنُّ إليها أيما حنين، كان أمواتنا يظهرون، ويسكنون أرواحنا التي يملؤها الرعب أصلاً.

رزم الرحيل مع أمه، ويرتب أشياء إخوانه، بينما تهتم ديتينيا بالأشياء الأخرى. فتذكر الحلية الذي ستبقى هناك وسط الغائط. ثم قام بتنظيف جده المشلول وخشي أن يحدث له توعّك أثناء الرحلة. يوم البارحة، ساعده أليريو الأسود فقاما معاً بتفكيك سطح الكوخ، وأخذا منه كل ما يمكن أن يكون ذا فائدة.

كانت ديتينيا منكمشة على نفسها، مختبئة وسط البُقج، تخشى أن يرونها. تريد أن تغادر على متن أول شاحنة نقل. مرّ شهر على عودتها وما زالت تختبئ في بيتها. منعت أبناءها من أن يقولوا إنها قد عادت. كانت تشعر بالخجل والخوف. تشعر بالخجل من أن يراها الجيران، لأنه حتى إن لم يسألوها عن أي شيء، فإنهم يريدون معرفة كل شيء بالطبع؛ وتخاف من أن ترسل السيدة لاورا الشرطة ويبدأ كل شيء من جديد. لقد شاخت وصارت نحيفة منذ وصولها. أخذت اليوم تتذوق ماء حياة والدها لكن القنينة لم تكن كافية لهما معاً. كان بيتو يحاول أن يقنعها بالخروج، ويكرّر أن الجميع قد نسوا تلك الحكاية. لكن ديتينيا ترفض. بيد أنه عندما جاءت تونينيا لتزورهم وقدّمت لها ما ربحته من مال قليل وهي تنام مع بعض الرجال، ازداد إحساس ديتينيا بالذنب. قالت لأختها، دون أن تنظر إلى عينيها، إنهم سيبدؤون حياة جديدة في مكان آخر. وأنها ستستأنف العمل. وأن بيتو سيساعدهم. فسكتت تونينيا. أما بيتو، ذلك الطفل البالغ، فكان يعرف ويؤمن بأن الكفاح شيء واجب.

في ذلك اليوم، جاءت الشاحنات على الساعة السابعة والنصف صباحاً، وكانت كل العائلات مستعدّة منذ وقت طويل، وكان من الصعب الاستمرار في النوم. فيما مضى، كانت الفافيلا تستيقظ باكراً: النساء يتوجّهن لغسل الملابس، والبحث عن الماء، وتحضير قدور الأكل المتواضعة؛ الرجال يتوجّهون إلى العمل أو شرب جرعات من ماء الحياة في بقالة سو لاديسلاو، وحانة سيما، أو في الدكاكين الصغيرة. وكان الأطفال ينهضون باكراً بدورهم، يحملون في عيونهم وفي بطونهم انتظاراً يائساً. فهل يحصلون اليوم على قطعة خبز؟ كان أصغرهم من الرضّع، الذين يصارعون من أجل الحياة، يتخبطون ويستجدون أثداء أمهاتهم أو الحساء المخفَّف.

كان بعض الأطفال يسلكون طريق المدرسة، لكن القليل منهم من كان يذهب إليها كل يوم. كانت المدرسة تولّد الكبت في نفوسهم. الشيء الوحيد الذي كانوا يحبونه في المدرسة هو العُقبة.

في ذلك اليوم، استيقظت ماريا الصغرى باكراً على غير عادتها. لم تهيّئ نفسها للذهاب إلى المدرسة. كانت تريد أن تودّع بيتو وعائلة ديتينيا. كيف سيضعون الجد المشلول فوق شاحنة النقل؟ كيف ستخرج ديتينيا التي تختبئ في بيتها؟ وهل ستأتي تونينيا، تلك التي تبيع جسدها؟

لقد تغيّر بيتو كثيراً. لم يعد ذلك الصبي الأسود، الذي كان يلعب الدحل والطيارات، يزعج الشبّان ويضايق الفتيات، بل أصبح رفيقاً وصديقاً. كان يصغر ماريا الصغرى بسنة واحدة. كان قد انقطع عن المدرسة منذ مدة، في السنة الثانية من السلك الابتدائي، بعد ثلاث سنوات من التردُّد غير المنتظم على المؤسسة. ذات يوم، قال لماريا الصغرى إنه لا يعرف كيف تستطيع أن تتحمل المدرسة. كان كل شيء مختلفاً؛ البناية، والمُعلِّمة، والرفاق، والدروس. أحسن ما في المدرسة كان هو العُقبة التي يوزعونها على التلاميذ! حتى فترات الاستراحة لم تكن شيئاً مسلياً. لم يكن يعرف كل الألعاب، والتلاميذ الآخرون لا يملكون صبراً ليُعلّموه.

منذ المرحلة الابتدائية وماريا الصغرى تحب عُقبة المدرسة، وخاصة العجائن لأنهم يضعون شيئاً من الجبن فوقها. كما كانت تحب الخبز بالمربى والحليب. حين تعض الخبز، يسيل شيء من المربى. كان الأطفال يقفون في طابور أمام المطعم. تأكل خبزها بسرعة وتتخذ لنفسها من جديد موقعاً في الطابور. كان عليها أن تكون متيقظة وتتحلى بشيء من الصبر في المرة الثانية. عندما تكون السيدة جيرالدا هي من يقوم بالتوزيع، فإنها تغض الطرف وتحصل دائماً على حصة أخرى. وحين لا تكون السيدة جيرالدا، فإنها لا تنال شيئاً بل يكون جزاؤها بعض الصفعات. ومع ذلك لا تفقد ماريا الصغرى عزيمتها، وتظل متيقظة. كان هناك كثير من الأطفال والمطاعم تشتغل بالتناوب.

خطرت تلك الذكريات على ذهنها وهي تتناول قهوة مخفَّفة قبل أن تذهب لتلتقي بيتو. كان هناك خبز في ذلك الصباح، لكنها لم تكن تشعر بالجوع. كانت حزينة. كيف سيضعون العجوز فوق الشاحنة؟ كيف ستخرج ديتينيا من بيتها؟ هيا، عليها أن تسرع. ونزلت القهوة الساخنة بسرعة عبر حلقها.

عندما وصلت إلى زقاق ديتينيا، كانت أغراض هذه الأخيرة وأغراض الجيران قد كُدست في شاحنة النقل. من لا يرحلون يمدّون لغيرهم يد المساعدة. كانت تعمُّ الفوضى، أحياناً. كانوا جميعاً يملكون الأثاث المستعمل نفسه، الرثاث نفسه، الأفرشة الممزقة نفسها، والحزم الوسخة نفسها. قِرَب الماء التي يغرسون فيها النباتات، أواني التبويل، السطول، والقراب. وعندما يكون كل شيء قد كُدّس، دائماً يصيح أحدهم: «آه، يا بونندادي، لقد أخطأت، هذا الشيء لي أنا!» فيقوم بونندادي بفكّ المتاع، ويضحك السكان، يضحكون وهم يخفون حزنهم.

كان رحيل ديتينيا مرتّباً في الشاحنة، عندما جاءت أختها تونينيا وساعدتهم كثيراً. صعد الأطفال وتعلّقوا بالقضبان، ثم راحوا يرسلون قبلات وإشارات وداع. قام أحد الجيران بحمل الجد النحيف، الذي كان يبدو هشّاً مثل طائر صغير. أجلسوه في الأمام، قرب السائق، ووضعوا كرسيه في الخلف مع بقية المتاع. ألقى بيتو نظرة حزينة على كوخ المرحاض. قال شيئاً للسائق ثم ابتعد. ضحك الجميع: كان الصغير متوتراً وفي حاجة إلى قضاء حاجته! بقي داخل المرحاض لحظة، ثم خرج أكثر حزناً. نظر إلى الحضور، كأنه يبحث عن شخص

ما. رأى ماريا الصغرى وأشار إليها بحركة من يده. دنت منه ماريا الصغرى وارتميا في حضن بعضهما يبكيان. أخفى الكبار تأثّرهم. ثم توجّه بيتو وماريا الصغرى نحو المرحاض. دفع بيتو الباب ودخلا. ظلَّ الحضور صامتاً، جامداً، مشلولاً من التأثر والفضول. لحظة بعد ذلك، خرج بيتو وماريا الصغرى يسحبون من يدها امرأة مطأطأة الرأس، تبدو كأنها تحمل على كتفيها كل خزي هذا العالم وحزنه. ثم علت الأصوات وتحرّرت المشاعر. ديتينيا! إنها ديتينيا! لقد عادت ديتينيا!

غطّت ديتينيا وجهها بكفيها. كان أهل الفافيلا قليلاً ما يظهرون مشاعرهم، ومع ذلك هرعوا نحوها وحملوها فوق أكتافهم كأنها قديس يطوفون به في موكب ديني. كانوا يصيحون، ويبكون، ويضحكون. يا للسعادة، لقد عادت ديتينيا! عادت ديتينيا! ثم وضعوا المرأة بكل وقار داخل الشاحنة، كأنهم يضعونها فوق مذبح.

كان الجميع يبكون. مسح السائق دمعة علقت بطرف عينه. وأخيراً، أزاحت ديتينيا يديها عن وجهها، ثم نظرت إلى الحضور وابتسمت. كانت أول ابتسامة ترسمها على شفتيها منذ ذلك اليوم الذي خبأت فيه بين نهديها ذلك الحجر الأخضر الجميل جداً، الصقيل كالمرآة، والذي يبدو في غاية الرقّة.

ومن أعلى الشاحنة، رأت الجدة ريتا، منزوية، بعيدة عن المجموعة. لأول مرة، جاءت الجدة ريتا دون أن يراها أحد، ودون أن ينتبهوا إليها مسبقاً. أشارت إليها ديتينيا بحركة من يدها، فردّت عليها الجدة ريتا بقبلة في الهواء.

نظر بيتو وماريا الصغرى إلى بعضهما في صمت. قفز الشاب بخفّة إلى الشاحنة. فتحت الشاحنة التي تقلّ ديتينيا وعائلتها الطريق، وتبعتا العربات الأخرى. ثم تعالت دوامات من الغبار.

رفعت الجدة ريتا عينيها. كانت السماء صافية، وواسعة. أخذت تغني.

وعاد كل واحد إلى بيته، يرافقه صوت الجدة ريتا القوي.

بعثت شركة البناء

إشعاراً نهائياً بالإفراغ، وأخبرت أهل الفافيلا أنها ستحمل آخر دفعة من السكان. جاءت المساعدات الاجتماعية المتعاقدة مع الشركة لزيارتنا.

كانت عائلة ماريا الصغرى تملك أرضاً يمكن أن تستقر فيها. ما إن انطلقت خطة هدم الفافيلا حتى اقتنت ماريا الكبرى وماما جوانا قطعة أرضية صغيرة، بعيداً جداً، هناك في أقاصي الدنيا. في مكان مُشجّر، تعيش فيه بعض الحيوانات ويعمّه الهدوء. كانت أول صعوبة هناك هو كيف سنذهب إلى العمل، وكيف سنكسب قوتنا. كانت المدرسة بعيدة جداً. ويمكن أن تضطر ماريا الصغرى وإخوانها إلى التوقف عن الدراسة.

كانت ماريا الصغرى جالسة عند عتبة الباب. كانت قد غسلت شعرها وأرخته ليجف تحت أشعة الشمس. كان قلبها يتلوى ألماً. كانت ملتزمة مع الحياة ولا تستطيع أن تتراجع إلى الوراء. كانت تفكر في الأحداث الأخيرة: موت سيدينيا سيدوكا، رحيل عائلة ديتينيا وعائلات أخرى...

لحظتها ظهر بونندادي، بخطواته الوديعة والخفيفة، كأنه قط يمشي فوق السطح. نظر إلى السوداء الصغيرة فشعر بحنان غامر. كان بونندادي يحب الجميع في الفافيلا: يحب العم توتو، وماريا الكبرى وماما جوانا. بيد أنه كان ينظر إلى ماريا الصغرى كما لو كانت ابنته، لو أنه رزق ببنت. كان يلوم نفسه لأنه شاطرها كل آلامه. كان بإمكانه أن يوفّر عليها ذلك. كان شعر الصغيرة، المنسدل والمتناثر، يشبه لبدة أسد.

جلس بونندادي إلى جانبها دون أن ينبس ببنت شفة. أزاحت ماريا الصغرى الشعر عن وجهها، كما لو أنها تزيل باقة أعشاب كي تشق طريقها. شدّت لبدتها بشريط مطاطي، هناك في أعلى رأسها. كان بونندادي يجلس قريباً جداً منها. نظرت إليه مليّاً. فزعت. تعلو وجهه مرارة وحزن. لم تكن على محياه علامات الزمن، كما هي على وجهَي ماريا الكبرى والعم توتو... لكنه لم يكن شاباً كذلك... فكرت أن تسأله عن سنه. سكتت. لم يسبق لها قط أن سألت بونندادي عن أمور تتعلق به. كان بونندادي سرّاً غامضاً بالنسبة إلى الجميع.

أمسك الرجل يد السوداء الصغيرة ليداعبها. كانت أصابع يده خفيفة ورقيقة.

مكتبة
t.me/t_pdf

استفدنا من ثلاثة أو أربعة أسابيع من الهدنة بينما تلقت العائلات الأخيرة إشعاراً بالإفراغ. كانت فترة غير ذات أهمية، باستثناء أنها زادت من آلامنا. لقد قرّر كل واحد أين سيذهب، حتى أولئك الذين لا يملكون أين يذهبون: سلّم البعض بعوزهم وذهبوا ليسكنوا في الشارع.

كانت ماريا الكبرى وماما جوانا تتظاهران بثقة لا تشعران بها في تلك اللحظة. لم يكن هناك من حاجة إلى جلب مزيد من المرارة للعم توتو وللأطفال. بيد أنهما كانتا تخشيان الصعوبات وتعرفان أنها ستستفحل. كيف سيكون بإمكانهما أن تأخذا الغسيل وكيف ستبحثان عنه؟ هل ستحتفظان بزبائنهما؟ هل ستستأنفان العمل في البيوت؟ من سيعتني بالعم توتو وبالأطفال؟ كان هناك الخوف، والمجهول، واليأس الكبير.

كنا حزانى، والوقت يمرُّ سريعاً جداً أو يطول إلى الأبد.

كان طبل الكونغادا[1] للعم توتو معلّقاً على رافدة السقف. كان من المفروض أن يُعاد إلى رئيس فرقة الكونغو، لكن هذا الأخير

(1) رقصة برازيلية تمثّل طقوس ومراسيم تتويج ملوك الكونغو. -المترجم-

توفي قبل بضعة أشهر. والعم توتو، الذي من المفروض أن يصبح هو الزعيم، كان يرحل عنا. أخذت فكرة الموت تختمر في رأسه. ما زلت أمامنا بضعة أشهر قبل أن نغادر. كان على يقين أنه لن يقوم بتلك الرحلة. بل سيقوم برحلة أخرى، أبعد منها.

كان «تاج الملوك»، الذي يستعمله العم توتو في حفلات الكونغادا، صقيلاً يلمع فوق الصوان الخشبي. كان يحب أن يتنكر في زي الملك، ويرتدي ملابس حريرية جميلة. كانت كل الحفلات تنتهي في الكنيسة الصغيرة التي بناها أتباع «الكونغو» إكراماً لسيدتنا ذات المسبحة. كانت صورة العذراء موضوعة فوق مذبحة تقوم السيدة أناليا ونساء أخريات بتزيينها بالورق المقوى والورق الحريري. وكانت ماريا الكبرى، وماما جوانا وماريا الصغرى يصنعن أزهاراً لتزيين القديسة من أجل الاحتفالات في شهر أكتوبر. كانت الكنيسة صغيرة ولا تفتح أبوابها إلّا أيام الاحتفالات. كانت ماريا الصغرى تحب الصلوات، بينما زعماء «الكونغادا» يتلون المسبحة.

ذات سنة، واحتفاء بذكرى تأسيس الكنيسة، قرر رجال فرقة «كونغو» التابعة لسو نورونيا أن يستضيفوا قسّ الخورنية المجاورة. أجابهم القسّ أنه لا يمكن إقامة القداس في مكان مدنس. لم يكن رجال «الكونغو» يعرفون معنى كلمة «مدنس». ويوم الاحتفال، صلت ماريا الصغرى بمزيد من الإيمان والخشوع: «ليس الماء المبارك أو رسامة الأب الذي لم يأتِ هو ما يبارك الكنيسة، بل الدموع، والآلام، واليأس، والأمل، وإيمان هؤلاء الناس الملتئمين هنا». في تلك الليلة، وبينما هي على وشك أن تنام، سمعت ماريا الصغرى بعيداً ضربات

طبل «الكونغادا» الكبير للعم توتو. لقد بقي العم توتو، وكان من بين آخر من رحلوا وصدى طبله يتردّد في الطريق. أصخت السمع. كان صوت الطبل يأتي من الخارج ومن دواخلها. كان يأتي من جذورها، يأتي من أعماق ذاتها.

في ذلك الصباح، نهض العم توتو بجسد خفيف. نظر إلى الماریاتين وإلى جوانا وهنّ يرتبن أغراضهنّ في الحُزم، وظلَّ صامتاً وقصياً، يطلق من حين إلى آخر زفرات عميقة. نادى على ماريا الصغرى واشتكى من البرد. كان جسد العم توتو يرتعش وعيناه شاردتان. اقتربت منه السوداء الصغيرة، وساعدته لينهض فشعرت بوضوح أنها لا تسند جسداً بل فراغاً. نظرت إليه نظرة حزينة. كان الأمر واضحاً. قرأت على وجهه، وفي عينيه، وفي طريقة كيانه علامات الوداع.

كتمت ماريا الصغرى صيحتها؛ لم تكن صيحة خوف أو فزع، بل صيحة نابعة من أعماقها. كان الموت، كانت الحياة. كان العم توتو، وقد أخذته الدوامة، العم توتو في الجهة الأخرى، توتو الذي لم يستطع العبور، فلم يتمكن من الوصول إلى الضفة الأخرى للنهر.

كان موت العم توتو مفاجأة لنا جميعاً. كنا نعرف أنه كان يموت قليلاً كل يوم، لكننا كنا نحسبه أبدياً.

صارت الحياة عديمة الطعم بالنسبة إلى ماريا الصغرى. كان العم توتو يشكّل بالنسبة إليها أكبر همزة وصل بين كل شيء وبين كل ما خلفه. الشيبُ الذي يغطي رأسه، نظراتُه الشاردة، يأسُه، كل هذا كان يدفع ماريا الصغرى نحو الخطوة الموالية. كان العم توتو يعني بالنسبة إليها التزاماً بالسعي إلى حياة أحسن، لنفسها وللآخرين. كانت الحياة تشبه مزحة سيئة الذوق، جرياً وراء كنز لا يرى. لكن ينبغي المضي قدماً. التوقف يعني التراجع، وخيانة الحياة. كانت السوداء الصغيرة ذاهبة للبحث عن شيء ما ولا تريد أن تعود خاوية الوفاض. نظرت إلى خالتها ماريا الكبرى، إلى أمها، وإخوانها وأخواتها، فشعرت أنه يجب عليها أن تسير معهم حتى تُصلح، وتُحسّن، وتغيّر الحياة.

حضرت دورا وأليريو الأسود طوال الوقت للسهر على جثة العم توتو. كانت دورا أجمل من أي وقت مضى. في بطنها، كان الطفل يحرك رجليه. قال أليريو الأسود لماري الكبرى ولماما جوانا إنه يحبهما كأُسرته ثم شدّ على يد ماريا الصغرى بحرارة. نظرت السوداء الصغيرة إلى الرجل في عينيه نظرة عميقة ومليئة. ثم نظرت إلى جسد العم توتو، الممدد على الطاولة. نظرت إلى الجميع. ونظرت من جديد إلى أليريو الأسود. أرادت أن تتحدث معه، وتخبره بما استقرّ عليه رأيها. لكنها صمتت، وهي تعلم أنها ستمضي قدماً، مثله. نعم ستمضي قدماً، وهي تعرف الآن ماذا سيكون سلاحها: الكتابة.

يوماً ما، سوف تحكي، وسوف تُسمع صدى أصوات الجميع، وهمساتهم، وصمتهم، والصيحات المكتومة داخل كل واحد منهم. يوماً ما، سوف تكتب ماريا الصغرى كلام شعبها.

كانت الفوّهة لا تزال هناك، أوسع من العالَم. مرّت السوداء الصغيرة أمامها وحاولت أن تنظر إلى أعماقها. شعرت بالرطوبة المنبعثة من المكان. تذكرت سيدينيا سيدوكا التي ماتت، لكن لا بدَّ للمرء أن يعيش. كانت غارقة في هذه الأفكار عندما شعرت بيد مألوفة تربت على كتفها: بونـدادي. كان يضع قبعته ويحمل على ظهره كيس الكتان الذي جاء يحمله يوم وصل إلى الفافيلا.

ابتلعت ماريا الصغرى ريقها بصعوبة. كم كانت غبية! لم يخطر على بالها أن هدم الفافيلا قد يُبعد بونـدادي أيضاً. لم تفكر قط أنه يمكن أن يذهب إلى مكان آخر. كانت تظن أنه سيرحل معهم، وهذه أعلى درجة من درجات الغباوة. ولكثرة ما تعايشت يومياً مع صديقها بونـدادي، وتعوّدت على حضوره العميق، نسيت أنه لا يسكن في أي مكان. كان بونـدادي يسكن في قلوب الجميع.

فهمت أنها أمام وداع آخر. وفي لحظة ما، كان كما لو أن كل شيء يتفتت بداخلها. وفي أعماقها، كانت هناك فتحة، ثقب أكبر بكثير من ذلك الثقب الماثل أمامها.

وبعينين غائمتين بالدموع رأت بوندادي يمشي بخطوات خفيفة وسريعة.

يبدو أن آخر الأكواخ التي ما زالت قائمة في الفافيلا تمارس العناد. كانت قليلة، قليلة جداً. تذكرت ماريا الصغرى تلك الأكواخ التي هدمت. كما تذكرت الحكايات التي كان يرويها العم توتو وماريا الكبرى، وكيف كانت الأحوال هناك حين وصلا إلى الفافيلا. لقد اختفت عدة أزقة. وفوق هذه الرقعة المسطحة، كان من المستحيل أن تتخيّل بشكلٍ دقيق أين كان يقع كوخ جيرالدو، وزي، وماريا دا لوش، وآخرين. فيما مضى، كان من الممكن التعرّف إلى تلك البقعة ولو بعينين مغمضتين، لكنها فقدت كل مميزاتها بين عشية وضحاها. فقدت كل مذاقها الملتوي. تلك الأزقة التي طالما انبثقت منها الحياة اختفت كما لو أنها لم توجد قط.

كانت الصغيرة تمشي شبه تائهة. تحمل بداخلها خوفاً كبيراً، وشيئاً من الفزع، لكن كان عليها أن تمشي. يوماً ما، سترحل هي أيضاً من الفافيلا. وسترحل الجدة ريتا، والأخرى بدورها. سوف تتجاوز الخوف والاشمئزاز، لكنها سوف تعانق الجدة ريتا. إن رأت الأخرى، فستحاول أن تنظر إليها بشكلٍ عادي بعد أن تغلّبت على فضولها.

تقدمت إلى الأمام بعض الشيء. توقفت. هناك كانت النافورة العليا فارغة. لقد أوقفوها بالأمس.

وبقلب يفيض شوقاً وحنيناً، حاولت أن تتذكر أول مرة ذهبت لتبحث عن الماء أو لتغسل الملابس في هذا المكان. لم تعد تذكر شيئاً، لأنها كانت لا تزال صغيرة جداً على أي حال، بل رضيعاً، لأن ماما جوانا والغسّالات الأخريات كنّ يأخذن معهنّ الأطفال الرضّع. وكان هناك مكان يمددن فيه الرضّع ويقدّمن لهم الأثداء عندما يبكون ويطالبون بالطعام، وهنّ يراقبنهم من مكان الغسل. فيما مضى، كان هذا المكان يغلي بالحياة؛ اليوم، لم يعد فيه غير الصمت.

نظرت إلى الأمام، فرأت أبواب الدكان مغلقة. تقدمت وهي تشد أنفاسها. وكانت البوابة الخشبية أكثر اهتزازاً. صفقت بيديها لتعلن عن حضورها. ملأت رئتيها بالهواء وحياتها بالشجاعة. ونادت كأنها تصيح، كأنها تبكي:

- الجدة ريتا! الجدة ريتا!

سمعت الجدة ريتا تجيب وهي تغني.

لتفتح البوابة، ولم تبدُ عليها أي مفاجأة، كما لو أنها كانت تنتظر زيارة السوداء الصغيرة، مع أنه لا أحد يزورهما، هي والأخرى، منذ سنوات. فتحت البوابة المهترئة، فانفكّ منها لوح خشبي وسقط على الأرض. تقدمت ماريا الصغرى خطوة أخرى، وحين ألفت نفسها في الزقاق الضيّق المظلم، بين الكوخ والوهدة، شعرت بالرضا عن نفسها. شعرت كما لو أنها تجاوزت حدود الحياة، دون أن تموت مع ذلك. شدت على يد الجدة ريتا الدافئة والخشنة، فشعرت برغبة في أن تبتسم وهي تتجاوز عتبة الباب ثم دلفت إلى الكوخ. ومن الغرفة المجاورة، سألت الأخرى بصوت أجشّ الجدة ريتا مَن هناك. وقبل أن تقول الجدة ريتا إنها الصغيرة، ردّت ماريا الصغرى: «هذه أنا». سمعت صديقة الجدة ريتا تعبُر بصعوبة الغرفة وتخرج نحو الدكان. كانت تلك هي فرصتها لتراها. ولم تشعر بأي خوف ولا أي فضول. لم تنظر إليها.

لطالما فكرت ماريا الصغرى في مصير المرأتين وأين ستذهبان لتسكنا معاً. لم تكن عائلة الأخرى تهتم بها. لقد هرب عنها الزوج منذ سنوات. كما هجرها الابن، مؤخّراً. لم تعد تعيش سوى على صدقة الآخرين.

كانت الجدة ريتا تخرج إلى الشارع، تربح القليل وتعود به إلى البيت. وكان بونادي دائماً يعود من جولاته الغامضة عبر الفافيلا بعدة مؤن من أجلهما. لكنه رحل الآن. وهما أيضاً سوف ترحلان.

كانت الجدة ريتا جالسة على كرسي قصير أمام السوداء الصغيرة، تتحدث وتتحدث. كان فمها ينفتح واسعاً ويكشف عن ابتسامات عريضة، كأنها تغني. كم كانت سعيدة بزيارة الصغيرة! وأن تُبلغ ماريا الكبرى وماما جوانا عناقاً أكبر من العالم. عناقاً مشحوناً بالحنين القوي وكل المتمنيات بالحظ السعيد. إنهم سوف يفترقون، لكنها لن تنسى أحداً وستفكر في الجميع. «اطمئني يا صغيرتي... تشبّثي بالحياة... وناضلي! اذهبي إلى أعماق قلبك وقلوب الآخرين، ولا تيأسي أبداً».

كيف كانت أحوال الأخرى؟ من سيّئ إلى أسوأ. لقد فقدت البصر تقريباً وصار الصوتُ يخرج خيطاً رقيقاً من فمها. كان المرض ينتشر في كل جسدها.

سوف تذهبان إلى مستشفى الجذام. قبلت الأخرى ذلك لأنه لم يعد أمامها خيار. سوف ترافقها الجدة ريتا. سوف تأتي سيارة الإسعاف لتأخذهما غداً في الصباح الباكر. جاء أطباء الصحة العمومية بالأمس وقالوا إن الأخرى كانت مخطئة حين لم تعالج نفسها منذ البداية، وبقيت في عزلة طويلة. صحيح أن المرض يخيف الناس ويبعدهم، لكن كان ينبغي عليها أن ترى الطبيب. ثم قالت الجدة ريتا:

- لقد أخبروني، أيضاً، أن صحتي بخير، باستثناء القلب الذي صار منتفخاً أكثر فأكثر. وهذا لا يزعجني، لأنني لا أشعر بأي شيء. وحينئذ سألوني، بما أنني تعودت أن أعتني بها، إن كنت أريد أن أذهب إلى مستشفى «القديس لعازر» للمصابين بالجذام لأشتغل معهم.

«سوف أذهب، يا صغيرتي، سوف أذهب... صديقتي في حاجة إليّ، وهناك في المستشفى أشخاص آخرون يمكن أن أساعدهم».

كان قلب ماريا الصغرى يطفح بالأمل. فرغم الآلام، والمعاناة، والجوع، والبؤس؛ رغم الأحكام المسبقة التي يكونون من ضحاياها أو هم من يأذون بها غيرهم؛ رغم الجذام الذي ينخر جسد الأخرى ويعشّش في قلوب العديد من الناس، كان هناك حب الجدة ريتا، هائلاً وسخياً، لا يستثني أحداً.

كانت ماريا الصغرى سعيدة. لقد انتصرت على الخوف والاشمئزاز من الأخرى. نهضت، وضمّت الجدة ريتا بين ذراعيها وقبّلتها، كما لو أنها تضم بين ذراعيها الأخرى وتقبّلها.

ومن داخل الدكان، نادت الأخرى على الجدة ريتا. فخرجت السوداء الصغيرة. كانت الشمس تسطع، معلّقة هناك في كبد السماء.

في ذلك اليوم، استيقظت ماريا الصغرى باكراً، زارت الجدة ريتا، ومشت طويلاً تدوس وتدوس أرضاً لطالما كانت أرضها. كانت الجرّافات مستعدّة ليوم الغد. سوف يغلقون الفوّهة ويهدمون آخر الأكواخ. وحلّ المساء هادئاً فتأمّلت ماريا الصغرى غروب الشمس. انتابتها رغبة في قراءة وكتابة شيء ما، لكنها كانت قد احتفظت بالكتب والدفاتر في الصندوق الكبير الذي

تستعمله كرسياً أو طاولة حين تجلس على الأرض. ثم حلّ الليل بطيئاً، تتخلّله نقط مضيئة هناك في السماء. ستكون تلك آخر ليلة تقضيها في الفافيلا. كانت كل أشيائها مرتّبة. جسدها مهدود ومتعَب. كانت أمها وخالتها قد سلّمتا آخر الحُزم. لم تخبرا زبائنهما بأي شيء. وكان هناك الخوف، والشكّ، وطوارئ الغد. كما كان هناك العناد، والقوة، والرغبة في الحياة.

يوم البارحة، اجتازت ماريا الصغرى آخر الامتحانات، وودّعت الأساتذة، والرفاق، والأصدقاء. لن تعود في الدخول المدرسي القادم، لكنها سوف تستأنف الدراسة، في يوم من الأيام.

في هذه البقعة شبه الخالية، كان بيتهم، كوخهم المطلي بالجير الأبيض، ينتصب كأنه حارس ليلي يقف في الظلام. تمددت ماريا الصغرى فوق السرير الممزّق. كانت النجوم تلمع عبر قراميد السقف المتناثرة. وعبر النافذة المفتوحة، كان القمر يضيء وجه السوداء الصغيرة. فشعرت ماريا الصغرى أن بإمكانها أن تلمس السماء لو رفعت ذراعيها.

نامت. فجاءت الجدة ريتا لتراها في وقت نوم-حلم لها هناك في الفافيلا.

دخلت الجدة ريتا بهدوء إلى الغرفة، دون ضجيج. لم تكن تسكت أبداً لأنها لا تتكلم أبداً، بل تغنّي؛ وجاءت على حين غرة، رغم أنه لم يكن من عاداتها أبداً أن تأتي بشكلٍ مباغت، وصلت إلى حلمها تمشي على رؤوس الأصابع، كبيرة، ضخمة، وخرقاء. فتحت

قميصها، وعبر سواد جلدها اللامع والشفاف ظهر بالداخل قلب عظيم.

وعند كل خفقة من خفقات قلب الجد ريتا كان يولد الناس.

كل أنواع الناس: السُّود، والبيض، والصُّفر، والورديون، والشاحبون...

ومن قلب الجدة ريتا الكبير والعظيم، كانت تولد البشرية جمعاء.

يوليو 1986.

مكتبة
t.me/t_pdf

t.me/t_pdf

أزقة الذاكرة

«في سن الثامنة حصلتُ على أول عمل في البيوت، وهو الأول ضمن سلسلة طويلة... أودُّ أن أقول إن علاقتي بالأدب بدأت في مطابخ الأغنياء».

هكذا تتكلّم كونسيساو إيفاريستو عن طفولتها، معتزّة بماضيها، مفتخرة بمسيرتها، متخطية المحن والصعوبات التي تواجهها فتاة فقيرة مثلها وُلدت في فافيلا، مدن الصفيح البرازيلية.

تأخذنا إيفاريستو في هذه الرواية الرائعة إلى البيئة التي ترعرعت فيها، إلى حياة الفافيلا، رغبة منها في «تدوين ما عاشته والاحتفاظ بالعابر إلى الأبد»، فهي تكتب وقلبها مليء بالحب والتعاطف تجاه هؤلاء المهمّشين: «أكتبُ. أقدّمُ شهادة. أكتبُ احتفاءً برجال، ونساء، وأطفال تراكموا بداخلي، كما كانت تتراكم أكواخ الفافيلا التي كنتُ أسكنُها». تكتب عن الفقر والظلم والبؤس، بل أيضاً عن الشجاعة والتضامن والتعايش المنسجِم الذي يقف في وجه الفقر المدقع والإقصاء، ويعطي الفرد الأمل، الأمل الذي لم يفارق إيفاريستو لحظة واحدة في حياتها: «مدفوعةً بأمل عنيد ومعرفة مبكِّرة، كانت الفتاة الصغيرة التي كنتُها تُدرك أن الحياة لا يمكن حصرها في ما تمنحنا من أشياء قليلة».

سيتردَّد صدى هذه الرواية في نفوسنا طويلاً، وستبقى سيرة كونسيساو إيفاريستو مثالاً لكلّ شخص يطمح إلى التغلُّب على ظروف حياته، مهما كانت صعبة وقاسية.

ISBN 978-9953-68-938-8

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com